الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل وشاعراته

ظل تيّار الغزل حاداً فى العصر ، وظل الشعراء ومن كان يَنْطق به من الجوارى ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعانى ، ويخيّل إلى الإنسان كأن كل من شَدَا بالشعر نظم فيه ، مصوّراً ألواناً من هذا الحب الذى كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كلّ شىء . وكانوا ينظمونه فى نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما فى العصر العباسى الأول ، ونقصد اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثرة الإماء ودور النخاسين التى كانت تزخر بالجوارى من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات ورومیات . ويصور الجاحظ فى رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنّ يُشِعْن فى جَوّ بغداد من التحلل الخلقى ، فكان طبيعياً أن تَنْفُقَ سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوارى كن يُكْثِرن من التغنّى به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسَعَرْن قلوب الشعراء شباناً وكهولا ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردُّوا أنفسهم إلى شىء من القَصْد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور فى نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حُرّاً ، بل حارّاً له حرارة الحُمّى .

وظل اتجاه الغزل العفيف النقى الطاهر حَيّاً بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمده أسراب كثيرة من غزل العُذْريين فى العصر الأموى ومن غزل مَنْ ساروا فى دروبهم من شعراء العصر العباسى الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حُمّاه ولكن بُشُوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمَّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرُّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يحيى معه هذه الحياة التى تضيف إليه خصباً فوق خصب . إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعانى التى تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين . فقد مرت من ذلك لمحة ، إنما يكفى أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وليلة — هو ابن المعتز . ومرَّ بنا حديث مفصَّل عنه . وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة فى الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب . وفى مقدمتهم مغنيه بَنان . ومما غنّاه به قوله[1] :

رأيتك فى المنام أقلَّ بُخْلاً ... وأطوعَ منك فى غير المنـــامِ
ولو أن النعاسَ يُباع بَيْعاً ... لأغليتُ النعاسَ على الأنام

وكان أشعر منه الخليفة الراضى ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولى فى كتابه : « أخبار الراضى بالله والمتقى بالله » طائفة كبيرة من أشعاره . وله قطعة تداولتها الكتب فى ترجمته وهى فى وصف جارية مغنية كان يُغْتَنُ بها ، وتجرى على هذا النمط[2] :

قد أفصحتْ بالوتَرِ الأعْجَمِ ... وأفهمتْ مَنْ كان لم يَفْهَمِ
جاريةٌ تحبُّ من لُطْفِها ... مخاطَباً ينطق لا من فَمِ
جَسَّتْ من العود مجارى الهوى ... جَسَّ الأطباءِ مجارى الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُختارون من صفوة كتّاب الدواوين . وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه . فيعبِّر به عن عواطفه

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٤٨ . الوفيات ٢/٣٧٦ .
(٢) معجم الشعراء ص ٤٣١ وفوات

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعى أن يوقد الحب فى نفوسهم الجذوة التى طالما أوقدها فى نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل[١] :

أيها العاشقُ المعذَّب صَبْرًا ... فخطايا أخى الهوى مغفورَهْ
زفرةٌ فى الهوى أحطُّ لذنبٍ ... من غزاةٍ وحِجَّةٍ مَبْرُورَه

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدى يحسن الشعر ونظمه ، وله فى الأغانى ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً ، وروى له المرزبانى مقطوعات متعددة فى الحب من مثل قوله[٢] :

كئيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمْع هامِلُهْ ... تخوَّنه من آجلِ البَيْن عاجِلُهْ
جريحُ صدودٍ قد أَضرَّ به الهَوَى ... ورقَّ له عُوَّادُه وعَوَاذِلُه

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتل أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفى مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم — كما مرَّ بنا — ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التى كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عَرِيب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته لكل منهما[٣] . كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها[٤] :

زعموا أنى أحب عَرِيبَـا ... صدقـوا والله حُبًّا عجيبا
حلَّ من قلبى هواها محلاً ... لم تَدَعْ فيه لخلقٍ نصيبا
هى شمسٌ والنساءُ نجـومٌ ... فإذا لاحتْ أَفَلْنَ غيـوبا

وهو فى هذه الأبيات يصرّح بأنه لا يشرك معها جارية فى حبه وهيامه ، ولكن

---

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .
(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ١٧٥ ، ١٩ / ١١٤ .
(٤) أغانى ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن وما يزرعن فى القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ، وفيها يقول[١] :

نَبْتٌ إذا سكتتْ كان السكوتُ لها ... زَيْناً وإن نطقت فالدرُّ ينتثرُ
وإنمـا أقصدتْ قلبى بمقلتها ... ما كان سهمٌ ولا قوسٌ ولاوتَرُ

وكان سعيد بن حُمَيْد يعمل فى الدواوين ، وأُسندت إليه رياسة ديوان الإنشاء فى عهد المستعين ، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض فى ترجمتها لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله يشكو السهاد وطول الليل[٢] :

يا ليل بل يا أَبَـدُ ... أنائمٌ عنك غَـدُ
يا ليل لو تلقى الذى ... ألقى بها أو تَجِدُ
قصَّر من طولك أو ... ضُعِّفَ منك الجلَدُ
أشكو إلى ظالمـةٍ ... تشكو الذى لا تجد
وَقْفٌ عليهـا ناظرى ... وَقْفٌ عليه السُّهُدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجى شَغَفت قلبه حبًّا ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها بحبه وعطفه وحنانه ويكْلف بها كلفًا شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفى شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله[٣] :

زرعتُ وشاجى بيننا فى شبيبتى ... غِراسَ الهوى فاعتمَّ بالثمر العَذْبِ

وماتت قبله ، فظل يبكيها بكاء مرًّا ، جازعًا عليها جزعًا لم يُرَ مثله ، وظل يزور قبرها وهو ينوح عليها ويتفجع بمثل قوله[٤] :

---

(١) أغانى ١٩ / ١١٧ وأقصدت : جرحت .
(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .
(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .
(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ٨ / ٤٣

يميناً بأنى لو بُليتُ بفَقْـدها وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياة وللنكْسِ
لأوشكتُ قتل النفسِ عند فراقها ولكنها ماتتْ وقد ذهبتْ نفسى

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسنّ نظمه ، وكُنّ — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع — يكتبن أبياتاً منه على طُررهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرد لمجموعة منهن صحفاً فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب وفضلا الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللائى كن يحسنّ الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أُدّبت وثُقفت ، وتمرنت على قول الشعر حتى أحسنته . وكانت تلحّنه وتغنى به على العود . وكانت تحلّ من قلب المتوكل محلا رفيعاً ، ويُرْوَى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنّى على ضَرْبها مصوّرة لوعتها من خصامه ومغاضبته و أنها لا تطيق الصبرعن لقائه[1] :

أدور فى القصر لا أرى أحدا أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصيةً ليس لها توبةٌ تخلّصنى
فمَنْ شفيعٌ لنا إلى ملكٍ قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح عاد لنا عـاد إلى هجره وقاطعنى

فصفّق المتوكل طرباً ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويُرْوَى أنه رأى ذات يوم جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفراً » . فأعجبه ذلك وتمنى لو صوّر ذلك شاعر من شعرائه : البحترى أو على بن الجهم أو مروان بن أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت[2] :

وكاتبةٍ فى الخَدِّ بالمسك جعفرَا بنفسى محطُّ المسك من حيث أثّرَا

(١) مروج الذهب ٤ / ٤٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١٣٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤٢ .

لئن أودعتْ خطًّا من المسك خدَّها لقد أودعتْ قلبي من الوجد أسْطُرا
فيا من لمملوكٍ يظلُّ مليكـــه مطيعاً له فيما أسرَّ وأظهرا

وهى من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة ، وليس من ريب فى أنهن عملن على أن يعبر الشعراء فى الحب عن حس دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل فى العصر ، وهم خالد ابن يزيد الكاتب ، ومحمد بن داود ، وفضل .

خالد[1] بن يزيد الكاتب

كان أحد كتّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات فى الجيش الذى خرج بقيادة على بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية وفى الطريق بلغ عليًّا أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذه فى ندمائه . ولما وزر الفضل بن خالد للمعتصم قرَّبه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم فى بناء سامرَّا بادر خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل إلى المعتصم فسُرَّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفى المدينة أشعاراً أخرى ويغنّى المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريبًا منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً فى مديح الخلفاء فى العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، إذ يقال إنه توفى سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه ، ولا يُعْنَى بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له بعض الهجاء القليل فى بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه فانصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

(١) انظر فى ترجمة خالد وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ٣١ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨ والديارات (انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ١١ / ٤٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٦ وله ديوان مخطوط بالمكتبة العمومية بدمشق

فى أواخر حياته . ويُجْمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز فى الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وَضَع الدموعَ مواضعَ الحُزْنِ حَيَّ السهاد وميِّتَ الجَفْنِ
عَبَراتُه نُطُقٌ بما ضَمِنَتْ أحشاؤُه ولسانُه يَكْنى
فى كل جارحةٍ له مُقَلٌ تبكى على قلبٍ له رَهْنِ
لم يَدْرِ إلا حين أسلمه قَدَرٌ للحظة واحدِ الحُسْنِ

والأبيات فيها دقة فى التفكير وفيها خيال بعيد ، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ، ومثله فى الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكى على قلبه الذى رهنته منه صاحبته ، وأيضاً تعبيره عن صاحبته بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتى بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كيف خانتْ عينُ الرقيب الرقيبا أخطأتنى لما رأيتُ الحبيبا
رحمتْنى فساعدتنى فقبَّلْ تُ بعينى مع الحبيب الرقيبا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألموا بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائماً طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رقدتَ ولم تَرْثِ للسَّاهرِ وليلُ المحب بلا آخرِ
ولم تَدْر بعد ذهاب الرقا دِ ما صنع الدمعُ بالناظر

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهى ، وصاحبته بجانبه ولا تدرى ما يعانى من عذاب الحب المبرّح ، وهو يتجرع غصص حبه محتملا مقاوماً ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسنُ من وجههِ والغصْنُ الناعمُ من قَـدِّهِ
وقد تعاتبنـا بأبصـارنا فيما جناه الخُلْف من وعدهِ
حتى تجارحنا بتكرارنا للَّحْظ فى قلبى وفى خدِّهِ
فأدرك الثأْر وأدركتـه وسرَّنى بالصَّدِّ عن صَدِّه

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قدَّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتاباً رقيقاً ، ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدَّ صاحبته ويترك فيه أثراً من طول تكراره ، أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التى تجرحه فى الصميم . وكأنما كل منهما ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثأرين : ثأر يجرح الخدود وثأر يجرح القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدَّت عن الصد وانصرفت عن الهجر . وكان يلمّ أحياناً ببعض الأديرة أو يفضى إلى تعاطى بعض كئوس الخمر ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث بغزله على عادته ، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرين كما رأت من البدر والشمس المضيئة بالأَرضِ
عشيَّة حيَّانى بوردٍ كأَنَّه خدودٌ أُضيفتْ بعضُهن إلى بَعْضِ
وناولنى كأْساً كأَنَّ رُضَابَها دموعىَ لما صَدَّ عن مقلتى غُمْضى
وولَّى وفعلُ السُّكْر فى حركاتهِ من الراح فعلُ الرِّيح بالغصْن الغَضِّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل ، نَوَّه به القدماء طويلا . وهذه الكأس التى ناولها صاحبته كأس المحبين التى طالما شربوا منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التى لا تجف والتى ماتنى تسقط فتمتلئ منها كئوسهم التى لا يعرف الناس أتمتلئ شرابًا أم ناراً . وله :

إذا كنت فى كُلِّى بكُلِّك مُفْرَغاً فأَىُّ مكانٍ من مكانك أَلطفُ
فمِنِّى إذا ما غِبْتَ فى كل مَفْصِلٍ من الشوق داعٍ كلما غِبْتَ يهتف

فهما روحان فى جسد ، وهو يحس فراغًا لا حدَّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه ينقد تمامه ، فهو ماينى يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهويتبعه ،ويتبعه قلبه من ورائه؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ،ومثل كبده الجريح ، يقول :

كبدٌ شفَّها غليلُ التَّصابى بين عَتْبٍ وسَخْطَةٍ وعَذابِ
كلَّ يوم تَدْمَى بجرحٍ من الشو ق ونوعٍ مجدَّدٍ من عــذاب
ياسقيمَ الجفون أسقمتَ جسمى فاشْفِنى كيف شئت ،لابك مابى

فهو يَصْلَى نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا فى جفونه وإنما فى جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضَنًا . ومن أرق الدعاء قوله فى آخر الأبيات : « لا بك ما بى » . وتدور له فى كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كيف تُرْجَى لذاذة الإغتماضِ لمريضٍ من العيــون المراضِ

وقوله :

ليت مــا أصبح من رقَّة خَــدَّيك بقلبك

وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمتى فبكائى لبُــكا العاذلِ

ولعل فى كل ما أسلفنا مايدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية فى رقة الغزل . وجعله ذلك مألفًا لكثير من معاصريه أمثال على بن المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكتمل الأنس والطرب ، ونحس دائمًا أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلا أحب جارية فى مطالع حياته ، ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئًا إلى هذا اللقاء حتى مماته .

محمد[1] بن داود الظاهرى

أبوه داود بن على بن خلف الأصفهانى مؤسس المذهب الظاهرى فى الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعى ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له فى الفقه مذهبًا مستقلا عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى . وقد أقامه على رفض القياس والرأى والتقليد للأئمة المذكورين واشتقّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة . ولذلك سُمى مذهبه باسم المذهب الظاهرى . وعُنى بتربية ابنه محمد . وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآنَ ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوى والنحوى المشهور ، وهو يروى فى كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثّل مذهبه ولما توفى سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلفه على رياسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعى فى عصره . وكانت حلقة تدريسه تغصّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة فى المذهب الظاهرى . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذى عُنى نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها فى جزءين خصّ الأول منهما بالحب العذرى العفيف ، وهو يتضمن خمسين بابًا فى كل باب مائة بيت من الشعر . وبالمثل أبواب الجزء الثانى الخمسون . فكل منها يشتمل على مائة بيت . وأهمها ما دار فى تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمه وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمنا فى حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو فى الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتناوها بأحواله من الفراق والشوق ويخص الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنوانًا مسجوعًا مثل « مَنْ كثرتْ لحظاته دامت حسراته » و « ليس بلبيب مَنْ لم يصف ما به لطبيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب » . وهى عناوين غير مضبوطة ،

---

(١) انظر فى حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٥/ ٢٥٦ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٠٥ وابن خلكان والوافى بالوفيات للصفدى ٣ / ٥٨ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة ابن سريج ٣/ ٢٣ وما بعدها ، وطُبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت .

وبالمثل ما يليها من الأشعار، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطُرَّ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتًا أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد فى الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلى حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب فى حياة أبيه وهو لا يزال حَدَثًا ، وفى ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا فى الكُتَّاب ونظر فى أكثره » . وكان فطنًا ذكيًّا نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويُرْوَى أن شخصًا سأله فى حلقته عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران ؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم . وفى هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفًا . ويُرْوَى أيضًا أن رجلا جاء إلى حلقته فدفع إليه ورقة ، فأخذها وتأملها طويلا ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية، وقلبها وكتب فى ظهرها الإجابة ، فراجعوها . وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومى الشاعر المشهور ، وإذا فى الرقعة مكتوب :

يا بنَ داودَ يا فقيهَ العراقِ ... أَفْتِنـــا فى قواتل الأَحـــداقِ
هل عليهن فى الجروح قصاصٌ ... أَم مباحٌ لها دمُ العشاقِ

وإذا الجواب :

كيف يفتيكمُ قتيلٌ صريعٌ ... بسهام الفراق والإشتيـــاقِ
وقتيلُ التـــلاق أَحسنُ حالا ... عند داودَ من قتيل الفراق

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلانى العطار وكان طاهراً فى هواه . فهو إن صح كان هوى نقيًّا . أو قل إنه كان تعلقًا أوشك أن يكون هوى أو ظنه الناس هَوًى . وكان ترجمانًا للهوى العذرى فى عصره كما كان مؤلفًا فيه، إذ صنَّف فى أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا . وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودى . من مثل قوله :

ع كبدى من خيفة البَيْنِ لوعةٌ ... يكاد لها قلبى أَسىً يتصَدَّعُ
يخاف وقوعَ البَيْن والشملُ جامعٌ ... فيبكى بعينٍ دمعُها متسرِّع

فلو كان مسرورًا بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقَّع
لكان سواءً بُرْءُهُ وسَقَامُهُ ولكنَّ وشْكَ البَيْن أدْهَى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التى تكاد تمزّق قلبه حسرات . وهو يخاف البين قبل وقوعه، فيبكى بدموع غزار، فما باله والبين يوشك أن يقع؟ إنه يُمْعن فى البكاء ويمعن فى الالتياع ويمعن فى الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتَّعْ من حبيبك بالوَداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فكم جرَّبتُ من وَصْلٍ وهَجْرٍ ومن حال ارتفاعٍ واتِّضاع
وكم كأْسٍ أمرّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عَنْها ذِراعى
ولم أَرَ فى الذى لاقيتُ شَيْئاً أمرّ من الفــراق بلا وداعِ
تعالىْ الله كلّ مواصــلاتٍ وإن طالتْ تؤول إلى انْقطــاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو المحب من الفراق ولحظة الوداع التى طالما عصرت قلوب المحبين ، ويقول إنها ليست آخر لحظة يلقى فيها الحبيب ، فستأتى بعدها لحظات لقاء ، وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب كئوسًا مرة أمر من الموت ، فتحمَّلها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم. ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شىء الزوال والفناء . ومن تتمة ذلك عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول فى بعض غزله :

أفوِّض أسبابى إلى الله كلَّها وأقنعُ بالمقدور فيها وأرتضى

فهو دائمًا يسلِّم — فى عذابه بالحب وآلامه فيه وما يَصْلَى من هجر وبعد وفراق — بما أرادته له المقادير. وتشيع فى شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقى طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ، يقول :

لا تُلزمنِّىَ فى رَعْىِ الهَوَى سَرَفاً وما أُوفِّيه إلا دون مـا يجبُ
فى عِفَّةٍ نتحامى أن يُلم بها سُوءُ الظنون وأن تغتالها الرِّيَبُ

ويُكثر فى غزله من ذكر المنازل والديار والفيافى والقيعان والرُّكْبان والمطايا ، وهو يتساءل والمنازل لا تجيب. فقد رحل الأحبة وخلفوا له وَجْداً ما مثله وجد ، وعبثًا يخفيه فكل ما حوله يبصره . يقول :

يُخْفى هواه وما يَخْفى على أحدٍ حتى على العِيس والرُّكْبان والحادى

ويَذيع شعره فى بغداد ويغنىّ فيه المغنون والمغنيات ، وهو لا يدرى من أمره شيئًا فقد كان منكبًّا دائمًا على حلقات الدرس وعلى التصنيف والتأليف . ويساير ذات يوم القاضى محمد بن يوسف فيَسمع جارية تغنىّ بقوله :

أشكو غليلَ فؤادٍ أنت متلفُه شكوى عليلٍ إلى إلْفٍ يعلِّلُهُ
سقمى تزيد على الأيام كثرتُه وأنت فى عُظم ما ألقى تقلِّله
اللهُ حَرَّم قتلى فى الهوى سلفاً وأنت يا قاتلى ظلماً تحلِّله

ويلتفت إلى صاحبه قائلا : كيف السبيل إلى ارتجاع مثل هذا الشعر الذى تلوكه أفواه المغنين والمغنيات. فيوئسه من ردّه قائلا : هيهات سارت به الركبان . ومن طريف ما يُرْوَى له :

فلا تُطْفِ نارَ الشوق بالشوق طالباً سُلُوًّا فإن الجَمْر يُسْعَر بالجَمْرِ

ولم تمتد حياته طويلا . فقد توفى سنة ٢٩٧ وهو فى الثانية والأربعين من عمره . ويقال إنه لما مات جلس ابن سريج مناظره المذكور آنفًا فى مجلسه وبكى وجلس على التراب . وقال : ما آسى إلا على لسان أكله التراب من ابن داود . وحزن عليه تلاميذه حزنًا شديداً. ويقال إن نفطويه جزع عليه جزعًا عظيمًا . ولم يجلس فى حلقته للناس يحاضرهم سنة كاملة .

فضل[1]

كانت أمها من مولَّدات اليمامة ، وكانت هى من مولَّدات البصرة ، نشأت فى دار رجل من قبيلة عبد القيس أدَّبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخَّاسين فى الكرخ ببغداد يقال له حَسْنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَّجى ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى فى زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت فى نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعنى واشترانى ، فضحك ، وقال لها : أنشدينا شيئًا من شعرك ، فأنشدته تمدحه :

استقبل المَلْكُ إمامُ الهُدَى ... عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى ... أن تملك الناس ثمانينا
لا قدَّس اللهُ امرءًا لم يَقُلْ ... عند دعائى لك آمينا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عَريب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طربًا شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلْقونها عليها ، فتجيزها فى سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقى عليها أحيانًا بعض الأبيات فتُسْرع فى إجازتها ببديهتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أسبابَ الرِّضا خوفَ عَتْبها ... وعلَّمها حُبِّى لها كيف تغضبُ

ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأدنو بالمودَّة جاهدًا ... وتبعد عنى بالوصال وأقربُ

---

(١) انظر فى فضل وأخبارها وأشعارها الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٤ ، ٢/١٧ وفوات الوفيات للكتبى وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر الآداب للحصرى ٤ / ١٦٥

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصَّت به معاصرتها الخنساء ، ولكن جمهور أشعارها كان فى الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلَم الجمال تركتنى فى الحب أشهرَ من علَمْ
ونصبتَنى يا مُنْيتى غرضَ المظنة والتُّهم
فارقتنى بعد الدنـ وٍّ فصرت عندى كالحلم
ما كان ضَرَّك لو وصلـ تَ فخفَّ عن قلبى الألم

وهى تقول لصاحبها إنك وصلتنى وشهرتنى بحبك ثم هجرتنى وأنزلتنى هذه المنزلة المخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ، وهى تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرّحة . وأكثر غزلها فى معشوقها سعيد بن حُمَيْد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة . من ذلك أنه عتب عليها يومًا أنها لا تُقْبل عليه فى مجلسها ولا تذكره باسمه فى غزلها ، فكتبت إليه :

وعيشك لو صرَّحت باسمك فى الهوى لأَقْصَرْت عن أشياءَ فى الهزل والجِدِّ
ولكننى أُبْدِى لهذا مودتى وذاك وأخلو فيك بالبثِّ والوجد

فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى وأَنْهَى جفونى أن تبثَّكِ ما عندى
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلتِه بنا فانظرى ماذا على قاتل العَمْدِ

وكان لا يقلُّ عنها كَلَفًا ولا غرامًا . وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويعودان إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة . وكانت لاتنى الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة . ومما كتبته له فى إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريًّا بصاحب الأغانى أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التى اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعَدُّ من طرائف الشعر العباسى . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القِيان وملأت قلبه فتونًا ، فكتبت إليه غاضبة ساخطة :

يا عالىَ السِّنِّ سَيِّئَ الأَدبِ شِبْتَ وأنت الغلامُ فى الأَدبِ
وَيْحَك إن القِيانَ كالشَّرَك الـ منصوب بين الغرور والعَطَب
لا يتصدَّيْنَ للفقير ولا يَتْبَعْنَ إلا مواضعَ الذهب

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير فى تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت فى الغاية والنهاية من التشيع . فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفِّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان بِذَحْلٍ كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسْهانا[1]
مالى وللدهر قد أصبحتُ هِمَّته مالى وللدهر . ما للدهر ، لا كانا

والبيتان رائعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعرى غزير ، واختُلف فى زمن وفاتها ، فقيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائلى المدوَّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلَّةً لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

٢

شعراء اللهو والمجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون فى اللهو والمجون كما انغمس أسلافهم فى العصر الماضى ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل فى الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال فى الموازين

(١) ذحل : ثأر

وفساد فى القيم شاعا فى حياة الدولة وفى حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكَرْخ مليئًا بالحانات وبدور النخاسين ،والشعراء المجنّان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكنّ يعرفنَ حشمة ولا وقاراً إنما كنّ يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوبًا والموصل شمالا ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائمًا لا فى الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أيامًا متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحابُ الخلاعة والمجون فى أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلا شاذًّا بالغلمان ، وَصْمَةٌ ظلت فى هذا العصر كما كانت فى العصر الماضى ، وكثير من هذا الغزل كان يُنْظَمُ فى أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصوّر الفساد الخلقى فى أبشع صوره . وحقًا لا نجد خليفة تورط فى حب غلام ، ولكن أيضًا كان كثيرون منهم يعكفون على الملاهى والملذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان فى صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجنّانا محترفين . وفى كل مكان نلتقى بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة فى الديارات وتارة فى دور النخاسين أو فى الحانات أو فى بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبى هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبى على البصير وأبى العيْناء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر فى الظرف والمجون[1] ، ومنهم جماعة أبى السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا فى صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا[2] . وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها فى ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، ومما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة فى الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطّراح ما مضى وإسقاط التكليف وستر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفًا لسنًا سريع الجواب ، واتخذه

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل فى ندمائه . وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد يبقى فيها أياماً لا يفيق من سكره . ولع فى دير باشَهْرا ، وكان بين سامرّاء وبغداد قوله[1] :

نزلنـــا دِيرَ با شَهْرَا ... على قِسِّيسِهِ ظُهْرَا
وسقَّانا وروَّانـــا ... من الصَّافية العَـــذْرا
وطاب الوقتُ فى الدَّيْرِ ... فرابطْنـــا به عَشْرا
ونِلْنا كلَّ ما نهـــوا ... ه من لذَّاتنا جَهْرَا

ومن كبار الشياطين فى العصر مصعب الوراق . وكان من أشد المجان تهتكاً وأكثرهم خلاعة وتطرحاً فى الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول[2] :

عمرتُ بقـــاعَ دَيْر الزَّعفرانِ ... بفتيـــانٍ غطارفةٍ هِجانِ[3]
بكل فَتًى يحنّ إلى التصابى ... ويَهْوَى شُرْبَ عاتقةِ الدِّنان
بكل فتى يميل إلى الملاهى ... وأصواتِ المثالثِ والمثانى[4]
ظَلِلْنا نُعمل الكاساتِ فيه ... على روضٍ كنقش الخُسْروانى
وأغصانٍ تميل بها ثمارٌ ... قريباتٌ من الجـــانى دوانى

وممن كانوا يتورطون حينئذ فى الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومى ، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعانى الدقيقة فى الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول[5] :

مشمولةٌ كشعاع الشمس فى قَدَحٍ ... مثل السَّراب يُرَى من رِقَّةٍ شَبحا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطُفٍ ... راحاً بلا قدحٍ عاطتْك أم قدحاً

وكثيراً ما كان يلمّ بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالى سامرّاء وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القَصْف ومواطن اللهو .

---

١) الديارات للشابشتى ص ٨٠ .
٢) الديارات ص ١٩٢ .
٣) غطارفة هجان : سادة كرام .
٤) المثالث والمثانى : من أوتار العود .
٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر الديارات ص ٩٣ .

وذكره كثيراً فى أشعاره . ومثله دير العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه . وله مقطوعة يصوّر فيها ما امتد حول الدَّيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله[1] :

ورياضٍ كأنهن بُرودُ ... كلّ يوم لهن صِبْغٌ جديدُ
وكأَن الشَّقِيقَ فيها عشيقٌ ... وكأَن البَهار صَبٌّ عَميدُ[2]
وكأَن الثمار والورقَ الخُضْـ ... ـرَ ثيابٌ من تحتهن نهودُ
فاسقنيها راحًا تريح من الهـ ... ـمِّ وتُبْدى سرورنا وتُعيد
وانتهز فرصة اللذاذات فى دَيْـ ... ـر العَـذارى فعلَّها لا تعود

وكان كثيرون لا يَغْلون فى المجون ولا يغرقون فى اللذات . وإنما يلمون بالخمر من حين إلى حين ، وقد يكون فى حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية ، وإما شك واستهانة بكل شىء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحيانًا أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها مجاراة للشعراء فى عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبى العباس الناشئ إذ يقول [3] :

ومُدَامةٍ يَخْفَى النهـارُ لنورها ... وتَذِلّ أكنافُ الدُّجَى لضيائها
صُبَّتْ فأَحْدق نورُها بزجاجها ... فكأَنها جُعِلَتْ إناءَ إنائِها
وتكاد إن مزِجَتْ لرقَّة لونهـا ... تمتـاز عند مِزاجها من مائها
صفراء تَضْحَى الشمسُ إن قِيستْ بها ... فى ضوئها كالليل فى أضـوائها
وإذا تصفحتَ الهواء رأيتـه ... كَدِر الأَديمـة عند حُسْن صفائها
لا شىء أعجبُ من تولُّد بُرْئِها ... من سُقْمها ودوائهـا من دائهـا

---

(١) الديارات ص ١٠٩ .
(٢) الشقيق : ورد أحمر . والبهار : زهر أصفر ، والكناية واضحة.
(٣) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

وهى خمرية بديعة لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الخمر ، فهى تارة تحيل الشمس ظلاماً ، وتارة تُرَى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجى . وهى متناهية فى الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُمْزَجُ بها ، وهى أيضاً متناهية فى الصفاء حتى ليُرَى الجو الصافى كدراً بالقياس إليها ، وهى داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون فى العصر . وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البُرْجمىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

الحسين [1] بن الضحاك

من كبار الخلعاء المجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهراً طويلا ، وكان ظريفاً ، فاتخذه الأمين نديماً له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعاً شديداً حين توفى الأمين ، ورثاه مراثى كثيرة ، وكان مما قال فيه باكياً متفجعاً .

هلا بقيتَ لسَدِّ فاقتنا ... فينا وكان لغيرك التَّلَفُ
قد كان فيك لمن مضى خلفٌ ... فاليوم أَعْوز بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده فى حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكى بها بغداد حين ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف ، فلما ذُكر له فى الشعراء قال : لا حاجة لى به ولا يرى وجهى إلا على قارعة الطريق أى فى مواكبه العامة . وظل لا يَقْرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقرَّبه منه . فمضى يمدحه وينال جوائزه . وقد أقطعه كما أقطع رجال

(١) انظر فى ترجمة الحسين بن الضحاك وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٨ / ٥٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٧/١٤٣ ومعجم الأدباء وابن خلكان ومرآة الجنان ٢ / ١٥٦ وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣ وأشعار الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة ببيروت) .

حاشيته داراً فى سامرّاء ، واتخذه الواثق نديمًا له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه فى ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله فى تهنئته له بالخلافة :

هَنَتْكَ أميرَ المؤمنين خلافةٌ جمعتَ بها أهواءَ أمةٍ أحْمد

وأعْجب المنتصر بالقصيدة ، فقال له : إن فى بقائك بهاءً للملك ، ولحق بعده عصر المستعين ، وفيه توفى سنة ٢٥١ للهجرة .

وكان يُعْرَفُ باسم الخليع لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر ، حتى أصبح اسمه مقرونا باسم أبى نواس أكبر ماجن فى العصر السابق ، وهو مثله فارسى الأصل ، وكان يصحبه فى شبابه ، ويبدو أنه تمثل أشعاره تمثلا نادراً وخاصة أشعار الخمر والمجون ، حتى اختلط الأمر على القدماء فنسبوا كثيراً من أشعاره إلى أبى نواس ، وزعم نفر منهم أن أبا نواس كان يحاكيه فى بعض أشعاره . والصحيح أن الحسين هو الذى كان يحاكى أستاذه وأستاذ الخمر والمجون فى العربية عامة . ويقول ابن المعتز إنه كان أنقى من أبى نواس شعراً وأقل تخليطًا منه ، وهى ملاحظة صحيحة غاية الصحة ، فإن أبا نواس كان يختلط بأبناء الشعب البغدادى من المجّان وغيرهم فى الحانات بالكرخ وغير الكرخ وفى الأديرة ، وكان لا يرتفع بلغته وألفاظه عنهم ، بل كان يدنو منهم دنوًّا شديداً . وكان ينظم كثيراً من خمرياته فى أثناء سكره ، فبدا فى أشعاره تخليط كما لاحظ ابن المعتز ، فهو تارة يرتفع حين ينظم فى مجلس الأمين أو فى مجلس بعض الوزراء والنابهين . وتارة يُسِفّ حين ينظم فى مجالس العامة ، وخاصة حين يخاطب غلمان الحانات وكانوا أخلاطًا من الفرس ممن لا يحسنون العربية الفصيحة . أما الحسين فكان فى جمهور حياته يعيش فى قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يُعْنَى أشد العناية بلغته وألفاظه ، ولا يكتفى فيها بالفصاحة بل يطلب أيضًا الرصانة والجزالة حينًا ، وحينًا العذوبة والنعومة وما يلائم الأذواق الرفيعة فى المجتمع ، لذلك قل التخليط عنده كما يلاحظ ابن المعتز ، بل كاد ينعدم انعدامًا ، ولذلك أيضًا شاع فى أشعاره النقاء والصفاء إذ كان يطلب فيها دائمًا أن تلذ الأسماع والأفئدة . وظاهرة ثانية يختلف فيها عن أستاذ المجون والخمر فى عصره هى شىء من الحشمة المصطنعة فى مجونه ، فهو لا يذيع فيه ما يذيعه

أبو نواس من الفحش، لأنه كان يعيش فى أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إثمًا منكراً ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئًا من الحشمة ولا كان يخفى شيئًا من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبى نواس مجونًا وشغفًا بالخمر ، فقد كان مثله مفتونًا بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظمه فى دَيْر سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله :

وعـواتقٍ باشرتُ بين حدائقٍ ... ففَضَضْتُهُنَّ وقد حَسُنَّ صِحَاحَا[1]
أتبعت وَخْزَةَ تلك وَخْزة هذه ... حتى شربتُ دماءهن جِرَاحَا
أبرزتهنَّ من الخدور حَوَاسِرًا ... وتركت صَوْنَ حرتهنَّ مُبَاحا

وهو يصور فتنته بزقاق الخمر الممتلئة التى لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحكت الطبيعة فى دير سابر من حوله ، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمائها أرطالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله فى دير سَرْجِس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة ، يقول فيها :

أخوىَّ حَىَّ على الصَّبوح صَباحا ... هُبَّا ولا تَعِدا النديم رَوَاحا
مهما أقام على الصَّبوح مساعدٌ ... وعلى الغَبُوق فلن أريد بَراحا[2]
عُودَا لعادتنا صبيحةَ أمْسِنا ... فالعَوْدُ أحمدُ مُعْتَدىً ومَرَاحا
هل تَعْذِران بِدَيْر سَرْجِسَ صاحباً ... بالصَّحْو أو تريانِ ذاك جُناحا
إنى أعيذكما بألفة بَيْننا ... أنْ تشربا بقرى الفُرات قَراحا[3]
عَجَّتْ قَواقِزُنَا وقَدَّس قَسُّنا ... هَزَجاً وأصخبنا الدَّجاج صِياحا[4]

وهو يتلطف إلى صاحبيه فى آخر الليل ويدعوهما أن يتناولا معه الصبوح كما تناولاه بالأمس، ويَعْذراه ولا يريا فى ذلك جُناحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

---

(١) العواتق : زقاق الخمر.
(٢) الصبوح : شرب الصباح ، والغبوق : شرب المساء .
(٣) الماء القراح : الماء الصافى .
(٤) القواقز : القداح . وقدس القس : رتل بعض التراتيل .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النمير ، بل يشربا معه صبوحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يُسْرا » إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله ، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعاً » إلى العبث به ، وكان وضيء الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ، وواضح أنه غزل كان يُرَاد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبى عيسى . وله فى الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهك حتى ... خلتُ أنى — وما أراك — أراكا
وإذا ما تنفَّس النَّرْجِسُ الغَ ... ضُّ توهَّمته نسيمَ شَذَاكا
خُدَعٌ للمنى تعلِّلنى فيـ ... ـك بإشراق ذا وبهجةِ ذاكا
لأدومنَّ يا حبيبى عـلى الو ... دِّ لهذا وذاك إذ حَكَياكا

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهى عذوبة تشيع فى كثير من أشعاره الغزلية والخمرية ، وهى طبيعية لشاعر كان يعيش فى قصور الخلفاء ومجالسهم ، ويسمع فى كل ليلة أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه الموسيقية تُرْهَفُ إرهافاً شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً خالصة على شاكلة قوله :

عالمٌ بِحبِّيهِ مُطْرِقٌ من التِّيهِ
يوسفُ الجمالِ وفر عونُ فى تعدِّيه
وهْو غيرُ مكترثٍ للذى أُلاقيه
لا وحقِّ ما أنا من عَطْفه أُرَجِّيه
ما الحياة نافعةٌ لى على تأبِّيه
النعيمُ يشغله والجمالُ يُطغيه

والقطعة من وزن عباسى حديث هو وزن المقتضب ، وهى تطير عن الفم بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره فى شعره عند الملاءمة بين

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفزع إلى مجزوءاتها كثيراً إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات فى شعره الفُرَص كى يجهروا بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

أبو الشبل[1] البرْجُمِيّ

اسمه عاصم بن وهب ، وُلد بالكوفة ونشأ وتأدّب بالبصرة ، يقول أبو الفرج : «قدم إلى سامرّاء فى أيام المتوكل ومدحه ، وكان طَبّاً نادراً ، كثير الغزل ، ماجناً فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخُصّ به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً خفيف الروح ، ويقصّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكه المحضر . وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه فى المجون ويتهالك على اللذات ، ويطلبها فى الحانات وفى الديارات ، ويقول من ترجموا له إنه كان عاكفا على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرّح فى الديارات والحانات ومواطن اللهو ، لا يُغِبّها ولا يتأخر عنها ، بل دائماً فى حانة أو فى دَيْر أو فى بستان أو متنزّه وقد شرب وأغرق فى الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع حراكاً . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشمونى بقرية قُطْرَبُّل شمالىّ بغداد وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمجون . وكان عيد هذا الدير فى اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ، ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون فى أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين خيامهم وفساطيطهم ، وكلٌّ قد أعدّ ما استطاع لقَصْفه ولهوه ، والقيان تعزف عليهم ، وآلات الطرب تُسْمَع فى كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون . وطبيعى أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

(١) انظر فى أبى الشبل وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص١٢٣ والديارات للشابشتى ص ٥٠ وما بعدها .

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنّى بمثل قوله :

شهِدْتُ مواطِنَ اللَّذَّاتِ طُرًّا ... وجُبْتُ بِقاعَها بَحْرًا وبَرًّا
فلم أَر مثلَ أشمونى مَحَـلاً ... ألذَّ لحاضريه ولا أَسَرًّا
به جيشان من خَيْلٍ وسُفْنٍ ... أناخا فى ذُراه واستقـرًّا
كأنهما زحوفُ وَغىً ولكنْ ... إلى اللذات ماكرًّا وفـرًّا
سلاحُهما القَواقزُ والقَنانى ... وأكواسٌ تدور هلمَّ جَـرًّا[1]
وضَرْبُهما المثالثُ والمثانى ... إذا ما الضربُ فى الحرب استحرًّا

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يُكثر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحياناً ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفاً فى شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعاً فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلا آخر لا يسفّ فيه هذا الإسفاف ، بل يُبْقى فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بأَبى ريمٌ رمى قَلْ ... بِى بأَلحاظٍ مِراضِ[2]
وحَمَى عينىَ أن تَلْ ... تَذَّ طيبَ الإغتماضِ
كلما رُمت انبساطاً ... كفَّ بَسْطِى بانقباضِ
أو تعالَى أملى فيـ ... ـه رمـاه بانخفاضِ
فمتى ينتصف المظـ ... ـلومُ والظالمُ قاضى

والأبيات خفيفة ، ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحاك فى عذوبة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لساناً إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عُمِّر عمراً طويلا حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً وبلغ من الكبر عِتِيّاً . وكان طبيعياً أن ينصرف عنه حينئذ الجوارى . وفى ذلك يقول :

عذيرى من جـوارى الحَـىِّ إذ يرغَبْن عن وَصْلِى

---

(١) القواقز : القداح كما مر . والأكواس : الكئوس .
(٢) الريم : الظبى خالص البياض .

رأين الشيب قد ألبـ سنى أُبَّهَةَ الكَهْـلِ
فأعـرضْنَ وقد كُنَّ إذا قيل أبو شِبْلِ
تساعَيْنَ فرقّعن الـ كُوَى بالأَعْيُنِ النُّجْل[1]

ومرَّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافاً شديداً ، وهو فى هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمّنه ، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصبَّ الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة فى رثاء قنديله يقول فيها :

يا عَيْنُ بَكِّى لفقد مَسْرَجةٍ كانتْ عمودَ الضياء والنورِ
صينيَّةِ الصين حين أبْدعها مصوّرُ الحسن بالتصـاوير
مَسْرَجتى كم كشفتِ من ظُلَم جَلَّيتِ ظلماءها بِتَنْويرِ
إن كان أوْدَى بك الزمانُ فقد أبقيتِ منك الحديثَ فى الدُّورِ

ومضى يصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمُدَى وألقى به فى القدور وكيف أن السَّنانير والحِدأة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عُرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغى ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعبث به ،ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكَرٌ تَعْتَرِى وحُزْنٌ طويلُ وسقيمٌ أَنْحَى عليهِ النُّحولُ
ليس يَبْكى رسماً ولاطللاً محّ كما تُنْدَبُ الرُّبى والطُّلولُ[2]
إنما حزنه على ثُلُثٍ كا ن لحَاجاتهِ فغالتْه غول[3]

(١) الكوى : الخروق فى الأبواب والنوافذ.
(٢) مح : عفا ودرس.
(٣) غالته : أهلكته .

كان للسرِّ والأمانة والكِتْـ ـمان إنْ باحَ بالحديث الرسولَ

وضحك صديقه طويلا ، واعترف له بأخذه ، وردَّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف فى الخلاعة والمجون ، بل فى الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله[1] بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نُشِّئ فى الحلية والترف والنعيم ، وقد عُنى أبوه بتعليمه وتثقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقوله على الطبيعة مُرْسلا نفسه على سجيتها ، لا يتكلف فيه ولا يتعمَّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنيًا محسنًا جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمَّته رقَّية كانت تتقن الغناء ، تسمى عَسَالِيج ، شغفت قلبه حبًّا ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنَّه من الأصوات والأدوار ، حتى أقررن له بالحذق . وصار يلازم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلى ، وكاد لا يترك لهم صوتًا دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخنَّر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترتفع شهرته فى إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه لسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنَّاه فيها فملأه طربًا ، من ذلك ما يُرْوَى من أن الواثق عوفى من مرض ألمَّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريبًا من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنيًا بيتين قالهما فى طريقه إليه على هذا النمط :

---

(١) انظر فى عبد الله وحياته وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد ١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١١٥ .

اسلمْ وعمَّرك الإلهُ لأُمـــةٍ بك أَصبحتْ قهرتْ ذوى الإلحادِ
لو تستطيع وَقَتْكَ كلَّ أَذِيَّةٍ بالنفس والأَمـــوال والأَولادِ

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقص صاحب الأغانى من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضًا مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيهتز طربًا ، وفيه يقول :

أَكرمَ اللهُ الإمامَ المرتضى وأَطال اللهُ فينا عُمُرَهْ
سَرَّه الله وأبقـــاه لنا ألفَ عامٍ وكفانا الفَجَرَه

وكان يغنى الخليفتين والمنتصر من بعدهما فى غزل كثير من أشعار السابقين وفى كثير من غزله الذى نظمه فى عساليج وفى غيرها من الجوارى اللائى فتنَّ قلبه وفى مقدمتهن مصابيح جارية الأحدب المقيِّن وكانت تغنى فى كثير من شعره . وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هيامًا شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بِيَعَ النصارى فى أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تتثنَّى بحسنِ جِيدِ غزالٍ وصليبٍ مفضَّضٍ آبنوسِ
كم رأيتُ الصليبَ فى الجِيد منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشموسِ

وتتردَّد فى غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سَرْجس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أيامًا مع بعض رفاقه ، يشربون ويقصفون ويَمْجنون ، وله يصوِّر ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صَحْبه فى دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرَ قُوطا لقد هيجتَ لى طربًا أزاح عن قلبىَ الأَحزانَ والكُرَبا
كم ليلةٍ فيك واصلتُ السرور بها لما وصلتُ لها الأَدوار والنُّخَبا
فى فتيةٍ بذلوا فى القَصْف ما ملكوا وأَنفقوا فى التَّصابى المالَ والنَّشَبا[1]

(١) النشب : المال والعقار .

وهو يكثر من الحديث عن صاحبته النصرانية وعن جوارى البِيَع والأديرة ، وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى لو استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ، أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله فى إحدى جوارى الدير السالف :

وشادنٍ ما رأتْ عيني له شَبها ... فى الناس لا عَجَماً منهم ولا عَرَبا
إذا بدا مقبلا ناديتُ واطَرَبا ... وإن مضى مُعْرِضاً ناديتُ : واحَرَبا

ويصرّح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقة ، لما كان يخامره فيها من سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قُراهن تسمى كركين وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحى الذى يقع فى يوم الأحد قبل عيد الفِصْح :

ألا اصْبحانى يومَ الشَّعانينِ ... من قهوةٍ عُتِّقت بِكَرْكينِ
عند أُنَاسٍ قلبى بهم كَلِفٌ ... وإن تولَّوا دِيناً سوى دينى

ومن الحق أنه لم يكن يُبْقى لنفسه شيئاً من الحشمة فى مجونه، وهو من هذه الناحية شبيه بأبى الشِبْل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر الخلفاء والأمراء ، وكأن هذه العشرة كانت شيئاً سطحياً ، وهو نفسه كان حفيد وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُوح كل يوم من دهره ما عدا أيام الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسفّ ويهبط إلى الدنيّات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشتى يقول عنه : «كان صاحب غزل ومجون كثير التطرح فى الديارات والحانات والاتّباع لأهل اللهو والخلاعة» . ومع ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويُرْوَى أن ابن الزيات وزير الواثق وكان أديباً بارعاً فى الشعر والنثر قال له : أنشدنى شيئاً من شعرك ، فقال إنما أعبث ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَرَّ فى الشعانين قَتْلى
تقول لى كيف أَصْبَحْـ ـت كيف يُصْبِحُ مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولو لم تقل غير البيت الأخير لكفاك ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغانى أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعساليج ومصابيح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التى طرب لها الواثق طرباً شديداً حين غنَّاه بها قوله :

بأَبى زَوْرٌ أَتانى بالغَلَسْ قمت إجلالاً له حتى جَلَسْ
فتعانقنا جميعاً ساعةً كادت الأَرواحُ فيها تُخْتَلَسْ
قلتُ يا سُؤْلى ويا بَدْرَ الدُّجَى فى ظلام الليل ما خفتَ العَسَسْ
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذٌ بالروح منى والنَّفَسْ
زارنى يَخْطِر فى مِشْيته حوله من نور خَدَّيْه قَبَسْ

والقطعة بديعة فى خواطرها وفى تصويرها للهيام بالمعشوق، وللمعشوق نفسه وجماله الساحر الوضىء، وأيضاً فى صياغتها وموسيقاها . وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ، وهو شىء طبيعى لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه فى نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقى ، شركة تصفيه من كل الأدْران ، فإذا ألفاظ الشعر متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا فى لفظ بل لاعوج ولا انحراف فى حرف ولا فى حركة ، إذ يعمّ الانسجام والإحكام . وهذا الأثر الموسيقى فى الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر فى الأوزان إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

٣

شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التى أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلا من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس فى الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجد فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ فى المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائمًا تدوِّى فى آذانهم كلمات الوعاظ والنسَّاك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير فى مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب فى الآخرة. وكان هؤلاء النساك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات فى المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفى كل مكان نجد بينهم قُصَّاصًا يقصُّون على الناس من سير الأنبياء والأمم الداثرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيمانًا صادقًا وورعًا مخلصًا، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملا أو منصبًا رفضه فى إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس الليِّن والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا فى جانب ما أمَّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش فى الثغور واعظًا وقاصًّا ومذكراً بما أعدَّ الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبى العباس الطبرى المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلبًا إذا قصَّ، ويُرْوَى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخرَّ مغشيًّا عليه من الموت[1].

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣/٥٩.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعًا كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لا فى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضًا فى الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظًا يقف بين يدى هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعيًا إلى الإقبال على ما عند الله ونَبْذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفًا منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم . وطبيعى — والزهد قوت العامة فى حين كان المجون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المجون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبى نواس فى العصر الماضى فقد كان الشعرَ الذى تتطلبه العامة والذى تجد فيه غذاء مشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئًا غلبهم التأثر حتى لو كانوا فى مجلس شراب على نحو ما يُرْوَى عن المتوكل فإن الحِمَّانى نقيب العلويين فى الكوفة الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى دخل عليه وهو فى مجلس شراب ، فأنشده[1] :

باتوا على قُلَلِ الأَجْبال تحرسهم ... غُلْبُ الرِّجال فما أَغْنَتْهُمُ القُلَلُ

واستُنزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم ... فأُودِعُوا حُفَرًا يابئسَ مانزلوا

ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا ... أين الأَسرَّة والتِّيجان والحُلَلُ

وأفصح القَبْرُ عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدودُ يَقْتتل

قد طالما عَمروا دورًا لتُحصنهم ... ففارقوا الدور والأَهلين وانتقلوا

ومضى فى موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلا حتى بَلَّتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . وممن كان يكثر فى العصر من الوعظ فى شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة . ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب الثَّنَوِيَّة ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعًا وولى القضاء برهة ، ويَرْوى له موعظة حائية يستهلها بقوله[2] :

---

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

أراعك شَيْبٌ فى السوادِ يلوحُ يبثّ بأسباب البِلا وينوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت . وقد بدأ يدق بقوة ، فعما قليل ستزهق الروح . ويذكر المرزبانى شاعراً معاصراً للمعتز من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحضّ فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدأين المعروفين فى الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً[1] كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى ، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا فى الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفى ديوان ابن المعتز والصنوبرى وابن الرومى زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد فى هذا العصر كما رسمها ابن الرومى فى قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفى منها بالأبيات التالية[2] :

بات يَدْعو الواحد الصمدا فى ظلام اللَّيْل منفـــردا
فى حَشَـــاه من مَخافتِهِ حُرُقاتٌ تَلْذع الكَبِدا
كلمـــا مَرَّ الوعيد بهِ سَحَّ دَمْعُ العَيْن فاطَّردا
قائلٌ : يا منتهى أمـــلى نَجِّنى مما أخاف غَدا
وخطيئاتى التى سَلَفَتْ لستُ أُحصى بعضها عددا
وَيْحَ عينى ساء ما نظرتْ وَيْحَ قلبى ساء ما اعتقدا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقى بها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرّ بنا فى الفصل الثانى حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلا خالصاً . ونمضى فى العصر ويلقانا ذو النون المصرى الذى يُعَدّ الأب الحقيقى للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التى تقوم على

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨ ص ٧١ وانظر ٤٩ .
(٢) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى)

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهى معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدْسى ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله بخاطب ربه[١] :

أموتُ وما ماتتْ إليك صَبابتى ولا قُضِيَتْ من صِدْق حُبِّك أَوْطارى
تحمَّل قلبى فيك ما لا أُبثُّه وإن طال سقمى فيك أوطال إضرارى

ويخلفه أبو يزيد البسطامى فيذيع فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقَمْعها لشهواتها وانمحاء إرادتها فى الإرادة الإلهية . ونمضى حتى نلتقى بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبِّر عن فنائه فى الذات الربانية بمثل قوله[٢] :

أَفْنَيْتَنِى عن جَمِيعى فكيف أَرْعَى المحلاَّ

وهو الذى عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة فى مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النورى ، وكان شاعراً ، ويكثر فى أشعاره من التعبير عن الحب الإلهى وفكرة الفناء فى الذات العلية بمثل قوله[٣] :

تأَمَّلْ بعين الحق إن كنت ناظرًا إلى صِفَةٍ فيها بدائعُ فاطرِ
ولاتُعْطِ حظَّ النفس منها لما بها وكُنْ ناظرًا بالحق قدرةَ قادر

ويلقانا أبو الحسين سَحْنون الخَوَّاص ، وله شعر كثير فى المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك فى فكرة الفناء المطلق فى الله بحيث لا يصبح فى المتصوف أى فضل لإحساس أى شىء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هى رغبة الانمحاء فى الذات الربانية التى تملك عليه كل شىء من أمره ، يقول[٤] :

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .
(٢) السلمى ص ١٥٦
(٣) السلمى ص ١٥٥
(٤) السلمى ص ١٨٩

وكان فؤادى خالياً قبل حبِّكم ... وكان بذكر الخلقِ يلهو ويمزحُ
فلما دعا قلبى هـواك أجابه ... فلست أراه عن فِنائك يبرح
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً ... وإن كنتُ فى الدنيا بغيرك أفرح
وإنْ كل شىء فى البلاد بأَسْرها ... إذا غبتَ عن عَيْنى بعينىَ يَمْلُحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو على الرُّوذْبارى ، وكان يقول : المريد الذى لايريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذى تفنى إرادته فى الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئًا فى الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره فى فكرة الفناء وغياب روحه عن حِسِّ أى شىء من أشياء الكون[1] :

روحى إليك بكلِّها قد أجمعتْ ... لو أنَّ فيها هُلْكها ما أقلعتْ
تبكى عليك بكلِّها عن كلِّها ... حتى يُقال من البكاء تقطَّعتْ

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التى تخلِّص النفس لربها . والفكرتان تتداخلان فى التصوف . فالمحبة التى تنكر الذات تنتهى إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان فى الذات العلية . ونعرض لاثنين من كبار المتصوفة بشىء من التفصيل وهما الحلاَّج والشِّبْلى .

الحلاج [2]

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاَّج ويقال إن أباه هو الذى كان حلاَّجًا يحلج الصوف أو القطن أما جدّه فكان مجوسيًّا أسلم ودخل فى الدين الحنيف ، وقد نشأ فى مدينة تُسْتَر ، فلزم سهلا التسترى

(١) السلمى ص ٣٦٧

(٢) راجع فى ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره السلمى ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١ / ٧٦ والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/ ١١٢ والطبرى ١٠/ ١٤٧ وابن الأثير وتكملة تاريخ الطبرى ص ٢٣ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٢ وشذرات الذهب ٢/ ٢٥٣ وكتاب أخبار الحلاج (طبع باريس) وكتاب فى التصوف الإسلامى لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس وكتاب ماسينيون عنه .

الصوفى ، الذى أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذى أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين . وكأن الله يتجلّى فيهم منذ البدء . وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوّداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع فى نفسه أنه أعلى من الجنيد فى عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التى طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقه متجهاً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف فى البلدان وتعرّف فى طوافه على أبى بكر الرازى أشهر أطباء العصر وتخرج عليه فى الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق فى طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والنيرنجيات . وفى عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه فى أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصفّى نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التى يبتغيها إذ يتمثّل فى نفسه حقيقة الصورة الإلهية التى سوّاها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيد فى هذه الفكرة طويلا ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يكثر من الشطحات ومن الكلام الموهم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلى قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق. ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات الكيمائية التى تعلمها على الرازى والنيرنجيات التى تعلمها فى الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمانى سنوات ، كان يُسْمَح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شغب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أداؤها شرعاً . ولعل هذه التهمة هى التى دفعت الفقهاء إلى الفتوى بِصَلْبِهِ ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحِلُّ المتصوف الذى بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعًا عنه التكليف إذ أصبح مساويًا للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سرًّا للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب فى سجنه وصلبه . وقد نُفِّذ الحكم عليه فى الثانى عشر من ذى القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ونُصب يومين على الجسر ، ثم حُمل إلى خراسان فطيف به هناك ، أما جثته فأُحرقت وأُلقى برمادها فى دجلة . وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يُحيُون بها ذكراه ، وظلت خالدة على مَرّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس فى عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته فى الخالق وخَلْقه فقد كان يظهر أنه يؤمن فى الخالق بتنزيهه كما يبدو ذلك فى كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصوَّر فى الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُنْعت بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت فى نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شىء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذى جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلَّى فيه ، كما يتجلَّى فى خلقه ومن هنا أُثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدها أيضًا من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى ، وبذلك يظهر الله بصورته فى الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول فى الطَّواسين :

سُبْحانَ من أظهرَ ناسوتُه ... سِرَّ سَنَا لاهوتِه الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهـرًا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عايَنه خَلْقُهُ ... كلَحْظـةِ الحاجب بالحاجبِ

وهو يشير فى البيت الأول إلى آدم وفى البيتين الثانى والثالث إلى ذريته ، فهم جميعًا ناسوت يُظْهر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحيين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثَّل ذلك فى عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تمتزجان فى مثل قوله : « اللهم إنك المتجلى من كل جهة المتخلى من كل جهة ، بحق قيامك بحقى وبحق قيامى بحقك ، وقيامُك بحقى يخالف قيامى بحقك ، فإن قيامى بحقك ناسوتية وقيامك بحقى لاهوتية » . وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجتان امتزاجًا تامًّا ، يقول مخاطبًا ربه :

مُزِجَتْ روحُك فى روحى كما تُمْزَجَ الخمرةُ بالماء الزُّلالْ
فإذا مسَّك شىء مَسَّنى فإذا أنت أنا فى كلِّ حال

وكأنه يشاهد الله فى ذاته ، أو كأنما حلَّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون فى المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشعّ أنواره فى كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حويتِ بكُلِّى كلَّ كلِّك ياقُدْسِى تكاشفنى حتى كأنك فى نفسى

وقوله :

أنت بين الشَّغاف والقلب تجرى مثل جَرْىِ الدموع من أجفانى
وتَحُلُّ الضميرَ جوفَ فؤادى كحلول الأرواح فى الأبدانِ

وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيِّنة واستقر فى نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهَد جهاداً عنيفًا فى الاتصال بربه ومحبته محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس فى قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أنا مَنْ أهوى ، ومَنْ أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنَا بدَنَا
فإذا أبْصَرْتنى أبْصَرْتَهُ وإذا أبْصَرْتَهُ أبْصَرْتَنَا

وقد رفع الرسولَ صلى الله عليه وسلم مراتبَ فوق جميع الخلق . ويبدو أنه أول من أعدَّ الفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعَدّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذى تَفجَّرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونَبْعُه الفيَّاض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبه المشتعل فى القلب والسكر ونشوته التى تفقده وَعْيه والفناء الذى تفنى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفى ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهـوى ... وغاب عن المذكور فى سطوة الذكرِ
فشَاهَدَ حَقًّا حين يشهده الهوى ... بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفى عنده أن يجاهد المتصوف ويعانى ويلقى الأمرَّين فى حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذى أعدَّ للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائمًا بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فتقه القشيرى والغزالى فى القرن الخامس الهجرى . ويُبْدئ ويُعيد فى تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله فى بعض مناجاته للذات العلية : « أنت تَعْلَم ولا تُعْلَمُ ، وتَرَى ولا تُرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحقر الراسيات . وأستخفّ الأرضين والسموات ، وبحقك لو بِعتَ منى الجنَّة بلمحة من وقتى أو بطرفة من أحرّ أنفاسى لما اشتريتها . ولو عرضتَ علىَّ النارَ بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتُها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عنى » . ومن قوله فى وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغرير واعجَبا ... ممن يريد النَّجا فى المسلك الخَطِرِ
كأننى بين أمواجٍ تقلِّبنى ... مقلَّبٌ بين إصعـادٍ ومنحدَر

الحزنُ فى مهجتى والنارُ فى كبدى والدَّمْعُ يشهد لى فاستشهدوا بَصَرِى

ولعلنا لا نُبْعد إذا قلنا إنه هو الذى وضع فى التصوف الإسلامى فكرة أن الأديان جميعًا تؤدّى إلى الله . وفقط تختلف شعائرها ، ولكنها تتحد فى الغاية . وبذلك تخطّى حدود الإسلام إلى حدود الديانات جميعًا ، مما جعله يقول :

ألا أبلغْ أحبَّائى بأنّى ركبتُ البحر وانكسرَ السَّفينه
فنى دِين الصَّليبِ يكون موتى ولا البَطْحَا أريد ولا المدينه

وهو لا يريد أن يقول إنه انسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت فى بطحاء مكة ولا فى المدينة المقدسة . إنما يريد أن يقول إنه يرى الله فى المسجد وفى الدَّير وفى كل معبد من معابد الديانات . فالديانات جميعًا عنده سواء . وفى الحق أن أشعاره وأقواله تحمل كثيراً من الإيهام والغموض حتى لتصبح أحيانًا — كما فى كتابه الطواسين — ألغازاً خالصة .

الشبلى[1]

كنيته أبو بكر . واسمه دُلَف بن جَحْدر . وقيل : جعفر بن يونس . وقيل جعفر بن دلف ، وقيل غير ذلك . وأصل أهله من أشْرُوسنة جنوبى طَشْقَنْد الحالية . فهو تركى العِرْق . رقى أبوه فى قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحجّاب ، وكان خاله يلى إمرة الإسكندرية بمصر . ويبدو أنه استعان به فى عمله لعدة سنوات إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصريًّا وأنه ورد بغداد من مصر . وقد تركت مصر والإسكندرية فيه بعض طوابعهما . إذ نراه يعتنق مذهب

(١) انظر فى الشبلى وحياته وأشعاره السلمى ص ٣٤٠ وتاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩ وابن خلكان ونشوار المحاضرة للتنوخى ١٧٢ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٦ وصفة الصفوة ٢/ ١٦١ والأنساب للسمعانى الورقة ٣٢٩ وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ٢/ ١٢٧ وحلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٣٦٧ وتلبيس إبليس لابن الجوزى ٣٤٧ وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٨ وروضات الجنات ص ١٦٠ وديوانه (طبع المجمع العلمى العراقى) بتحقيق كامل مصطفى الشيبى وما ذكر فيه وفى تقديمه من مراجع

المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرَّبه منه الموفَّق — ولى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه فى خلافته — واتخذه حاجبًا له ، ثم ولاَّه دُنْباوند بالقرب من الرَّىّ ويَحْدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النسَّاج تلميذ السَّرِىّ السقطى ، وأبى حمزة البغدادى وعلى يديه تاب وأناب . ولم يلبث أن لحق بالجُنَيْد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرَّق أمواله فى الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربَّانى . فإما أن تمنحنيها ، وإما أن تبيعنيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها . ألْقِ بنفسك غير هيَّاب فى عُبابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعلَّك — إن صبرت — أن تظفر بها » . ومضى الشبلى يجاهد ويَضْنَى فى جهاده ويَشْقَى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره فى سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صوَّرناه آنفًا وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متابعًا أستاذه الجنيد فى اتباع الكتاب والسنة ، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعيًّا ، وقد عرفنا آنفًا أنه كان مالكى المذهب ، وهو لذلك يُسْلَك مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتل الحلاج خشى على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخبل لئلا يُمْتَحن ، وأُدْخل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرَّغ للوعظ ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فَجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العليَّة حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عامًا .

وكان الشبلى فى تصوفه دائمًا سُنيًا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سُئل مَنْ أسعدُ أصحابك بصحبتك ؟ فقال : أعظمُهم لحرمات الله وألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرةً فى مرضاة الله وأعرفهم بقضائه وأكثرهم تعظيمًا لما عظَّم من حرمة عباده . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين فى صُنْعه مفقود عند الناظرين فى ذاته ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فمَنْ كان فى طول الهَوَى ذاقَ سَلْوَةً فإنِّى من لَيْلَى لها غَيْرُ ذائقِ
وأكثرُ شىءٍ نلتُه مِنْ نَوَالها أمانىُّ لم تَصْدُقْ كلَمْحَةِ بارقِ

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلا عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلى الله فى عبيده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شىء والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شىء آخر ، وهو يخاطِبُ ولكن لا يُرَى ولا يشاهد ، يقول :

وخاطبتُ موجودًا بغير تكلُّمٍ ولاحظتُ معلوماً بغير عِيانِ

وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يَجْرِ علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُبْدئ ويعيد فى الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أُدْخِلْتُ المارستان كذا وكذا مرة ، وأُسْقِيت الدواء كذا وكذا مرة ، فلم أزدد إلا جُنونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جرى حبّك فى قلبى كجَرْى الماءِ فى العودِ

وقوله :

هذه دارهم وأنت محبٌّ ما بقاءُ الدموعِ فى الآماقِ

ويطيلُ الحديث عن عذابه فى حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى فى العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعِدّون الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فيُفْضى إلى حزن شديد ونوح وتعديد ، حتى لكأنما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قبورٌ الوَرَى تحت الترابِ وللهوى رجالٌ لهم تحت الثيابِ قبورُ
وعندى دموعٌ لو بكيتُ ببعضها لفاضتْ بحورٌ بعدهن بحورُ

وكان يؤمن بالفناء فى الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يَفْنَى فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائمًا تصوف صَحْو لا تصوف غَيْب، وإن بدا فى كلامه أحيانًا أن فناءه إنما يكون فى حال غيبة من مثل قوله وقد سُئل : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحلّ الإحساس » ، وذُكر عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى عامر كان إذا سُئل عن ليلى يقول: أنا ليلى ، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ويغيِّبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى » . ولكن ينبغى ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاّج ، إنما يريد الإحساس بالفناء فى الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسَرْمَدَ وقتى فيك فهْو مُسَرْمَدٌ وأَفْنَيْتنى عنى فعُدْتُ مُجَدَّدَا
وكُلِّى بكلِّ الكلِّ وَصْلٌ محقَّقٌ حقائقُ حَقٍّ فى دوامٍ تخلَّدَا

وقوله :

تَغَنَّى العــودُ فاشْتَقْنَا إلى الأحباب إذ غَنَّى
وكُنَّا حيثما كانُوا وكانوا حيثما كُنَّــا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوذات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد اللهَ أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانىّ وحُسْبان .

---

(١) السرمد : الدائم ، وتسرمد : خلد

٤

شعراء الطرد والصيد

مَرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الخلفاء والوزراء وعلية القوم شُغفوا بالصيد والطَّرَد حينذاك وأن الشعراء وفى مقدمتهم أبو نواس نظموا طَرَدِيَّات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبى نواس نحو خمسين طَرَدِيَّة أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناؤهم وكثير من الناس فى هذا العصر يُولَعُون بالصيد، وممن كان يولع به من الخلفاء وَلَعًا شديداً المتوكل، إذ كان يُولَعُ بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة فى العصر لم يُشْغَفْ بالصيد كما شُغف المعتضد ومَرَّ بنا فى الفصل الثانى أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدَّم لها وحده، وفى ذلك يقول له بعض معاصريه[1]:

يا صائد الأُسْد إن صَيْدَكها لجامعٌ خَلَّتين من رَشَدِ
فَلَذَّة تُجْتَنَى ومنفعةٌ للسالكين السَّبِيلَ والقَعَد[2]

ويذكر الصابى أنه كان يُنْفق يومياً سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازيارين والفهَّادين والكلاَّبين[3]. وورث ابنه المكتفى عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد فى مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعاً. مما أهَّل لازدهار شعر الطرد فى العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طَرَدِيَّة بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها فى بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكاً بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تُنْظَمُ فى أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضارياً من ضوارى الصيد إلا وصفوه ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣.
(٢) القعد: جمع قاعد.
(٣) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

والفهود والبُزاة والشواهين والصُّقور والعقْبان ، ونعتوا الصيد من حُمُر الوحش وأتُنه وثيرانه وبقره وظبائه ونَعامه وكذلك من الأرانب والثعالب والذئاب والآساد والطير والإوزّ ، وألموا بآلاته من النَّبْل والسهام والنشّاب والفِخاخ والشباك والحبال المسماة بالأوْهاق التى تُجْعَلُ فى أطرافهَا أنشوطة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك بعنقه ، والجَلاهق وهو بندق مدوَّر من طين يُرْمى به. وكان لهذا النشاط الواسع فى الصيد وما يتصل به من الشعر أثر فى أن أخذت تؤلَّف كتب مختلفة فى البَيْزرة وفى المصايد والمطارد . تفصِّل القول فى الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه . وقد نُظمت حينئذ طرديات كثيرة . لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراءها لكثرتهم المغرطة ، ونكتفى بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ، وكان قد خرج يومًا مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق لهما فى مَرْج للزعفران كثيرٌ من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة والصقور والشواهين والكلاب . وفى ذلك يقول[1] :

وَطِئْنا رياضَ الزَّعْفَران وأَمسكتْ ... علينا البُزَاةُ البِيضُ حُمْرَ الدَّرَارِجِ[2]

ولم تَحْمِها الأَدْغالُ منا وإنَّما ... أَبَحْنَا حِمَاها بالكلاب النَّوَابِجِ[3]

بمُسْتَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها ... على الأَرض أَمثال السهام الزَّوَالِجِ[4]

ومستشرفاتٍ بالهوادى كأَنها ... وما عَقَفَتْ منها رُءُوس الصوالجِ[5]

ومن دالعاتٍ أَلْسُنًا فكأَنها ... لِحىً من رجالٍ خاضعين كَوَاسجِ[6]

فَلَيْنَا بها الغِيطانَ فَلْيًا كأَنها ... أَناملُ إحدى الغانيات الحوالجِ[7]

قَرَنَّا بُزَاةً بالصقور وحوَّمتْ ... شواهِيننا من بعد صيد الزَّمامجِ[8]

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فمنقار الصقر كأنه صَوْلجان ،

---

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢٠ .

(٢) الدرارج : جمع دراج وهو طير ملون الريش .

(٣) النوابح : النوابح .

(٤) مسترُوحات : تشم آثار الصيد . سابحات : مسرعات . الزوالج : التى تنزلق بسرعة.

(٥) الهوادى : الأعناق . عقفت : تعوجت . الصوالج : جمع صولجان.

(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .

(٧) فلينا : فحصنا . الحوالج : اللائى يخلصن البذور من القطن.

(٨) الزمامج : جمع زمج : طير جارح أصغر من العقاب

والكلاب حين تَدْلَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لحىً مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُزاة والكلاب فحصًا دقيقًا حتى لكأنها أنامل دقيقة لسيدة تفلى القطن وتخلِّص الحبَّ منه ، فلا تبقى حبة مختبئة ، بل كل الحب يُستَخْلَص ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومرَّ بنا فى الفصل الرابع تصوير البحترى لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه فى فلاة موحشة ، وهما لوحتان رائعتان . ولابن الرومى غير قصيدة فى الطَّرَد والصيد ، ونكتفى من طردياته بالقطعة التالية التى يصور فيها صَيْدَ صحابه للطير ، وقد تقلَّدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُنْدق الذى يُرْمَى به . وأشرعوا أقواسهم مسدِّدين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول[1] :

وجَدَّتْ قِسِيُّ القَوْمِ فى الطير جِدَّها ... فظلَّتْ سجودًا للرُّماة ورُكَّعَا

طرائحَ من بِيضٍ وسُودٍ نَوَاصِعٍ ... تخال أديمَ الأرض منهن أبْقَعَا[2]

فكم ظاعنٍ منهن مُزْمِعِ رِحْلَةٍ ... قَصَرْنا نَواه دون ما كان أزْمعا[3]

وكم قادمٍ منهنّ مُرْتادِ منزلٍ ... أناخَ به منا مُنِيخٌ فجَعْجَعَا[4]

هنالك تَغْدو الطيرُ ترتَادُ مَصْرَعاً ... وحُسْبانها المكذوبُ ترتاد مَرْتَعَا

مباحٌ لراميها الرَّمايا كأنَّما ... دعاها له داعى المنايا فأسمعا

لها عَوْلَةٌ أوْلَى بها ما تُصيبه ... وأجدرُ بالإعوال مَنْ كان موجَعـاً

وما ذاك إلا زَجْرُها لِبناتهـا ... مخافةَ أن يذهبن فى الجوِّ ضُيَّعَا

وظلَّ صِحابى ناعمين ببؤسها ... وظلَّتْ على حَوْض المنيَّة شُرَّعا[5]

ويبثُّ ابن الرومى فى وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راكعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُثَّةً هامدة ، ومنها ما هو فى سبيله إلى الهبوط ، وهى مطروحة فى الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطَّطًا ،

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .

(٣) يريد بالنوى وجهته فى الارتحال . مزمع : عازم .

(٤) الجعجعة : صوت البعير ورغاؤه عند إناخته .

(٥) شرعاً : واردة الماء .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الخصب فإذا هو يجد المصرع الذى لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعى الموت فأسمع وأصْمَى ، والطير تُعْوِل غير متنبهة للرمى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق فى الجو ، على حين تترامى على حياض الموت ، بؤس ما بعده بؤس والصائدون ناعمون نعيمًا ما بعده نعيم . وقد عرضنا فى غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات فى العصر . ويذكر مترجموه أنه صنَّف كتابًا فى جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جارح يُفْلت منه فى شعره أو قل فى طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائمًا تجرى الكلاب وراء الظباء والأرانب حتى تصيدها وقلما أفلتت منها . ومن قوله فى كلبة ماهرة فى الصيد[1] :

قد أَغْتَدِى والليلُ كالغُرابِ دَاجِى القِناع حالكِ الخِضابِ
بكلبةٍ تاهتْ على الكــلابِ تفوت سبقاً لَحْظة المرتابِ
تنساب مثل الأَرقم المنسابِ كأَنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقْفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال فى دُجاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تيَّاهة على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت فى نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفى سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبه ، وهى تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لمَّاحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائمًا تصيب وتصيد . ومن قوله فى وصف باز من بُزَاته[2] :

---

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ . والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .
(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٠٩ .

ذو مقلةٍ تَهْتك أستار الحُجُبْ كأنها فى الرأس مسمارُ ذَهَبْ
يعلو الشمالَ كالأمير المنْتَصِبْ أمكنه الجودُ فأعطى ووَهَبْ
ذو مِنْسَرٍ مثل السِّنان المُخْتَضِبْ وذَنَبٍ كالذيل رَيَّان القَصَبْ[1]
كأن فوق ساقه إذا انتصَبْ من حُلل الكَتَّان رَاناً ذا هُدُبْ[2]

وتشبيه مقلة البازى الصفراء بمسمار الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرّق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهى بريشه ، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدابه ، وله فى باز آخر[3] :

فارسُ كفٍّ ماثلٌ كالإسْوَارْ ذو جُؤْجُؤٍ مثل الرخام المَرْمارْ[4]
أو مصحفٍ مُنَمْنَمٍ ذى أَسْطارْ ومقلةٍ صفراءَ مثل الدينارْ
ترفع جفناً مثل حرف الزُّنَّار ومخلبٍ كمثل عطف المسمارْ

وهو فارس كف لأنه يُحْمَلُ على الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلته فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنَّار الذى يضعه النصارى فى أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما المخلب فكعطفة المسمار . وله يصف فهدة[5] :

ولا صَيْدَ إلا بوثَّابةٍ تطيرُ على أربعٍ كالعَذَبْ[6]
فإن أُطْلِقَتْ من قِلاداتها وطـار الغبارُ وجَدَّ الطَّلَبْ
فزوبعـةٌ من بناتِ الرياحِ تُريك على الأرض شيئاً عَجَبْ
تضمُّ الطَّريدَ إلى نَحْرها كضَمِّ المحبَّة من لا يحبُّ

فأرجلها كالخيوط من خفتها ، وحين تطلق من قلائدها ويجدُّ طلبها لطرائدها

---

(١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها .
(٢) رانا : ثوباً .
(٣) الديوان وديوان المعانى ٢/ ١٤٠ .
(٤) الجؤجؤ : الصدر . المرمار : الناعم . الإسوار : الحاذق فى الرمى .
(٥) المصايد والمطارد ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .
(٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين.

ويعلوها الغبار لسرعة عَدْوها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ، مما يملؤك عجبًا ، وإذا هى قد صادت الطريد وضمته إلى نَحْرها وصدرها لا ضمَّ حنان ولكن ضم عُدْوان ، كضم المحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبرى طرديات مختلفة ، منها قوله فى باز[1] :

ذو مِنْسَرٍ أَقْنَى ورُسْغٍ كَزٍّ ... ومِخْلَبٍ لم يَعْدُ إِشْفَا[2] الخَـرْزِ

مُسَرْبَلٌ مثل حَبِيك القَزِّ ... أو مثل جَزْعِ اليمن الأَرْزِىِّ[3]

لما لَزَزْنا الطير بعد اللَّزِّ ... بأَسفل القاع وأعلى النَّشْزِ[4]

آبَ لنا بالقَبْجِ والإِوَزِّ ... من جَبَلٍ صَلْدٍ ومَرْجٍ نَزِّ[5]

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التى يَنْقَضُّ بها على الطير انقضاضًا فلا تستطيع منه خلاصًا ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزْع أو الخرز اليمانى الذى تغنَّى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة فى القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله فى الطَّرَدِ ووصف كلابه وما صادت من الوحش[6] :

يا روضةً من حُلَلٍ ما خاطَهـا ... خَيَّاطُ

الوحشُ فى أَرجائهـا قبـائلٌ ... أَخْـلاطُ

غادَيْتُهَـا ولم يُقِمْ أَعـلامها ... الغَطَاطُ[7]

بأَكلبٍ لو لم تَطِرْ أَطـارَها ... النشـاطُ

فجِئْنَ والطَّـلُّ عـلى آذانهـا ... أَقـراط

انبسطتْ كالشُّهْبِ لا يُعْجِـزها ... انبسـاط

---

(١) ديوان الصنوبرى ص ١٣٣ .
(٢) إشفا : مخرز .
(٣) حبيك : محبوك . القز : الحرير . والجزع اليمانى : خرز . أرزى : أبيض كالأرز .
(٤) النشز : المرتفعات .
(٥) القبج : الحجل . نز : به بعض المياه .
(٦) الديوان ص ٢٨٧ .
(٧) الغطاط : القطا .

وطفقتْ والوحشُ فى مجالهـا بســاطُ
صَرْعَى تُشَقُّ قُمْصُها عنهـا ولا تُخَـاطُ

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلَل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القَطَا وغيره من الطير مُرْسلا عليها كلابه المسرعة التى تكاد تطير طيرانًا ، غير آبهة ببرودة الطَّقْس وما قرَّط به آذانها من النَّدَى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزّقه تمزيقًا لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البَرِّ يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفى ذلك يقول[1] :

أَفضَلُ ما أَعددتهُ من العُدَدْ وما حَوَى صَحْبِى بهِ غِنَى الأَبَدْ
بناتُ قَيْنٍ حاز فى الحذق الأَمَـدْ على مقاديرِ مخاليبِ الصُّرَدْ[2]
لها رءوسٌ فى أَعاليها أَوَدْ كمثل أَنياب الأَفاعى وأَحَدّ[3]
عُجْنَا بها من حيث ما عاج أَحد فى ظل صَفْصافٍ علينا قد بَرَدْ[4]
شاطىْ نَهْرٍ لابسٍ دِرْعَ زَبَدْ ولم تزل تُرْسَلُ طورًا وتُمَدّ
ثم بعثنا أَلف عَيْنٍ فى جَسَدْ فجئننا بمثلهنَّ فى العَـدَدْ
أَلفٍ من الحِيتان بيضٍ كالبَرَدْ

وواضح أنه صوَّر الصنانير والصيد ثم الشبكة وما صوَّر أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفى بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طرديَّاته فى العصر هو أبو العباس الناشئ فقد كان مولعًا بالطَّرَد والصيد ، وله طرديات كثيرة .

---

(١) الديوان ص ٤٧٥ .
(٢) القين : الحداد صانعها . الصرد : طائر ضخم الرأس والمنقار وهو من الجوارح .
(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .
(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

أبو العباس[1] الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلا ، وفيها تلقّن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم ، وكان ذكيًّا ذكاء حادًّا ، وصرف ذكاءه فى مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجى ، إذ ألف كتابًا ينقض به منطق أرسطو وكتابًا ثانيًا ينقض به آراء الخليل ابن أحمد فى العروض ومثّل لقواعده بغير أمثلته . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة فى فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت فى روىّ واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التى أنشدها الحصرى له فى موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعيًّا ، وربما شيعيته هى التى جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفّى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب فى تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالمًا فقط بل كان أيضًا ناقداً ، ولعل هذا الكتاب هو الذى جعل أبا حيان التوحيدى يعجب به وبنقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه ليزيد على كلام قُدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب » ، وينقل أبو حيان فى تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعى الشعر وبواعثه ، وهو يجرى على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دِمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو إعذاراً إلى سفيه ، أو تغمداً لهفوة ، أو تنصلا من زَلّة ، أو تحضيضا على أخذ بثأر ، أو تحريضًا على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتابًا على طويّة أو متابًا من مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو

---

(١) انظر فى الناشئ وحياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/١٥٨ وشذرات الذهب ٢/ ٢١٤ والبصائر والذخائر لأبى حيان ٢/ ١١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر الآداب ١ / ١٧٧ ، ٣ / ٥٠ ، والمصايد والمطارد لكشاجم (انظر الفهرس) والعمدة لابن رشيق ١ / ٧ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص ٢٥٥ وديوان المعانى ١ / ٢٥٤ و ٢ / ٢٢٨ .

ضربًا لأمثال سائرة ، أو قَرْعًا لقوارع زاجرة ، أو نظمًا لحكم بالغة ، أو تزهيداً فى حقير عاجل ، أو ترغيبًا فى جليل آجل ، أو حفظًا لقديم نَسب أو تدوينًا لبارع أدب » . والقطعة تلمُّ فى دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصرى قطعة فى وصفه لشعره يقول فيها :

يتحيَّر الشعراءُ إن سمعوا به ... فى حُسْن صَنْعتِهِ وفى تأليفهِ
شَجَرٌ بدا للعين حُسْنُ نباتهِ ... ونَأَى عن الأَيْدِى جَنَا مَقْطُوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعًا غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان فى طبقة ابن الرومى والبحترى ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم فى موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالعُ الحق ما من شُبْهةٍ غَسَقَتْ ... إلا ومنهم لديها كوكبٌ يَقِدُ[1]

ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس ، وصبَّ أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومَصيداته وآلاته . ويكفى لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركنًا أساسيًّا صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طَرَدِياته اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده فى هذا الكتاب طردية له فى صيد أحد الكلاب يستَهلُّها على هذا النمط :

قد أَغْتدى والفَجْرُ فى حِجابهِ ... لم يَحْلُلِ العُقْدةَ من نِقابهِ
بأَغْضَفٍ عَيْشُهُ من عذابهِ ... من صَوْلةٍ بظُفْره ونابه[2]
يَرَاح أن يُدْعَى ليُغْتَدى بهِ ... روحةَ ذى النَّشْوة من شرابهِ[3]
يَخُطُّ بالبُرْثن فى ترابه ... خطَّ يد الكاتب فى كتابهِ[4]

والطريف فى هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحًا لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضًا فإنه جعله يشعر بنشوة ما بعدها نشوة حين

---

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتعل .
(٢) أغضف : مسترخى الأذن .
(٣) يراح : يجد خفة ونشاطا .
(٤) البرثن : المخلب

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْق أو صحيفة وهو يخطّ فيها ببراثنه ، ويُتْبع كشاجم هذه الطَّرَدِية بطردية أخرى تطّرد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبٍ ربُّه فى رزقهِ ... يَرَى حقوقَ النفسِ دون حَقِّهِ
متَّبعاً بِخُلْقه لِخُلْقــهِ ... كأنمــا يملك عَقْدَ رِقِّه
يَصُونُه بجُلِّهِ ودِقِّــهِ ... كآملٍ من مالك لِعِتْقِهِ[1]
تراه فى تَسْرِيحهِ ورَبْقِهِ ... كعاشقٍ أضناه طُولُ عشقهِ[2]
أصفر يُلْهِى العينَ حسنُ خَلْقِه ... كذهبٍ أبرزتَه من حُقِّهِ
ذو غُرَّةٍ فارقةٍ لفَــرْقهِ ... وذو حُجولٍ بَيَّنَتْ عن سَبْقِهِ[3]

وقد جعل الناشئ رَبَّ هذا الكلب وصاحبه يقدّمه على نفسه فى غذائه ، ويأتسى به ، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع الذى يملك رقه . وإنه ليرعاه فى كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب للصيد ، فيجعله حين يكون فى ربْقته وحبله كعاشق طال عليه البَيْنُ والهجران ، حتى أصابه ضَنًى شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغُرَّته فى جبهته وحجوله فى سيقانه ، وبياضها يلمع فى أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله فى البازى طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ، وفيه يقول :

أَلبسه الخالقُ من ديبــاجهِ ... ثوباً كفى الصانعَ من نِسَاجه
حالٍ من السَّاق إلى أَوداجهِ ... وَشْياً يحار الطَّرْف فى اندراجه[4]
فى نَسَقٍ منه وفى انعــراجهِ ... وزانَ فَوْدَيْه إلى حِجَاجِه[5]
بزينةٍ كفتهُ عــزَّ تاجهِ ... وظُفْرُهُ يخبر عن علاجِه
لو استضاءَ المرء فى إدلاجه ... بعينه كفته عن سراجه

فالخالق جلّ شأنه كساه ثوبًا من الديباج يملأ النفس إعجابًا بوشيه وخطوطه

---

(١) الجل والدق : الكثير والقليل .
(٢) الربق : من الربقة وهى حبل يشد منه الكلب .
(٣) الحجول : بياض فى سيقان الكلب .
(٤) الأوداج : عروق فى العنق .
(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حلاّه بتاج كتاج الملوك المتألق بحليه وزينته ، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضيئة ضياء السراج فى الليالى الداجية . وينظم فى الصقر غير طردية ، وفى إحداها يقول :

سَباه مَنْ كان به خليقا فَرْخاً صغيراً ما أقلَّ موقا
زيَّنه برأيه شفيقـــا كما يصون العاشق المعشوقا
حتى انتهى وحملَ الحقوقا ونفَع الصاحبَ والصديقا

وهو يصوّر تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربّاه صغيراً وما زال يرعاه محبًّا له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يثقفه ويدرّبه على الصيد ، حتى مهر فيه . وحتى أصبح يَجْلب من الإوزّ وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبّاءه . ومن قوله فى وصف شاهين :

يَظَـلُّ من جناحه المَزِينِ فى قُرْطُقٍ من خَزِّه الثَّمينِ[1]
يشبه فى طرازه المصونِ بُرْد أَنُو شِرْوانَ أو شِيرِينِ
ذو مِنْسَرٍ محدَّدٍ مَسْنُونِ وافٍ كشطر الحاجب المقرون
منعطفٍ مثل انعطاف النونِ

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التى تجعله يلبس قرطقًا أو قباء مفوفًا من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مخلبه المنحنى كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة فى وصف صيد الطير بالجَلاهق أو البندق . تحدّث فيها عن صيد الكراكى . وهى طير طويل المنقار والرجلين . مفرده كركىّ . ويسمّى الغرنيق وجمعه غرانق . ويطرّد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

وَوْرِدٍ يُجْذِلُ قلبَ الوامقِ منظَّمٍ بالغُـرِّ والغَرانقِ[2]

(١) القرطق : قباء ذو طابق واحد . الغر : طير الغرانق : الكراكى .
(٢) يجذل : يسر . الوامق : مديم النظر .

وكلِّ طيرٍ صافرٍ أو ناعقِ مكتهلٍ وبالغٍ ولاحقِ
مَوْشِيَّةِ الصدور والعواتقِ بكل وَشْيٍ فاخرٍ وفائقِ(١)
تختال فى أجنحةٍ خوافقِ كأنما تختال فى قَرَاطِقِ
يَرْفُلْنَ فى قُمْصٍ وفى يَلامقِ كأنهن زَهَرُ الحدائقِ(٢)
حُمْرِ الحِداق كُحِّلِ الحَمالقِ كأنما يَجُلْنَ فى مَخانقِ(٣)

وهو يصوّر مورداً عذباً يسر قلب الناظر إليه رُصّع بالطير والكراكى من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشّيت فى صدورها وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل فى كُسُوَة ذات تلاوين حتى لكأنها زهر حدائق مختلفُ الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوّق أعناقها القلائدُ الباهرة. وفى كتاب المصايد والمطارد بجانب الطرديات السابقة طرديتان فى صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره فى إحداهما بهذه الصورة الفذة:

رُبَّ ذِى شِبْلَيْنِ قَسْوَرَةٍ قد أَحمَّ الحَيْنُ فى أَجَمِهْ(٤)
لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به لا، ولا يَدْنو إلى حَرَمِهْ
كَمِجَنٍّ الحرب هامَتُهُ وكَغَوْرِ الغارِ رَحْبُ فَمِهْ(٥)
وكأن البرق ما قدحتْ عَيْنُه باللَّحْظِ من ضَرَمِهْ
وكأن الموتَ مُعْتَرِضٌ بين لَحْيَيْهِ ومُلْتَشَمِهْ

وهو يقول إن هذا الأسد القَسْورة هبط به القضاء فى عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمّون بحَرَمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفزع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل تُرْس حرب صلابة وقوة، وكان فمه كالغار

(١) العواتق: الكواهل. جفن العين. المخانق: القلائد.
(٢) اليلامق: جمع يلمق وهو نوع من القباء. (٤) أحم: نزل. الحين: الموت. الأجم: بيت الأسد
(٣) الحمالق: جمع حملاق، وهو باطن (٥) المجن: الترس.

يسقط فيه كل ما يَقْضمه، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف، وكأن الموت كان يجثم على فمه بين لحييه وملتثمه .

وللناشئ وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقًّا كان صاحب شاعرية خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التى أعدته ليحاور ويداور أرسطو والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب فى أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة فى عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول فى خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئًا من هذا القول ، إنما أوردوا له هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما فى الفصل الرابع وهما فى وصف سحاب هاطل .

وفى الحق أنه كان يعرف كيف يولِّد الصور وكيف يستخرجها من مكامنها وكيف ينظمها شعراً عذبًا ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجابًا به على شاكلة قوله :

متعاشقان مُكاتمان هواهما ... قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللحْظَ من جَفْنَيْهما ... فكأنما يتدارسان كتابا

وقوله :

يلوح فى خدِّه وَرْدٌ على زهرٍ ... يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطِفا

والزهر فى البيت طبعًا هو زهر النرجس الذى تشبه به العيون ، وعبَّر عن القبلة بأنها اقتطاف لورد الخدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً إلى أول مُجْتناها وباكورته . وله :

ليس شىء أحرُّ فى مُهْجة العا ... شق من هذه العيون المراضِ
والخدودِ المضرَّجات اللواتى ... شِيب جِرْيالُها بِحُسْن البياضِ
وطروق الحبيبِ والليلُ داجٍ ... حين هَمَّ السُّمَّار بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تَدْلَع فى قلب العاشق قطعًا من النار ، وتدلع فيه نفس القطع الخدودُ المشربة بالحمرة ، ويشعله إشعالا ، زيارةُ المحبوبة ليلا ، وقد همَّ السُّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة ، ويبدو أنه كان قريبًا من نفوس الجوارى فى بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب فى بعض المتنزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت ، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيلِ فإن كنت تهوينى فارْحَلى

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت فى قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيبة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهًا حديثه إلى تلك الرقيبة :

فديتكِ لو أنهم أنصفوكِ لردّوا النواظرَ عن ناظريكِ
تردِّين أعْيُنَنَا عن سِواكِ وهل تنظر العينُ إلا إليكِ
وهم جعلوكِ رقيباً علينا فمن ذا يكون رقيباً عليكِ
ألم يقرءوا – وَيْحهم – ما يَرَوْ نَ من وَحْيِ حُسْنكِ فى وَجْنَتَيْكِ

ولعل فى كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهى ملكة استطاع أن يَغْذُوَها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هى تُصْقَلُ وإذا هى تزداد خصبًا ، وإذا الناشئ لا يزال يُطْرِف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

٥

شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربى دائمًا كان موصولا بالشعب ، اتصل به فى العصر الجاهلى ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلتْ له هذه الصلة

فى العصر الأموى، وإن تحولت أحيانًا من الشعور القبلى إلى الشعور الجماعى، أما منذ العصر العباسى الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جدًّا بينما ظل الشعور بالروح الجماعية حيًّا مشتعلا . وكان من أهم العوامل فى ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة ، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى مَنْ عاش مِنْ هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفى قصورهم ظلّ موصولا بروح الشعب، فهو يتغنّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التى لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبّرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية . وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى . وحتى حياة المجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسّها الشعب وتعيشها على الأقل فى تلك الأعياد أسراب منه . أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلقَى على العامة وكان من وَحْى حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار . وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب ، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبى الذى نتحدث عنه ، فنحن نريد منه نوعًا خاصًّا ، هو النوع الذى يصوّر ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس ، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومَنْ لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون فى النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أى جهد ودون أن يحتملوا أى عناء ، على حين تَرْزَحُ عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة ، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما فى فصل الحياة الاجتماعية . وكان طبيعيًّا أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرّعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والإمعان فى البؤس والتعاسة . ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموه ضاع ، لأنهم من أبناء الشعب ، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه ، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف ، وحتى ما سُجّل من هذا الشعر لم يسجّل معه اسم صاحبه إلا نادراً[1] .

---

(١) انظر المحاسن والمساوى للبيهقى (طبعة مكتبة نهضة مصر) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٤٤٨ وما بعدها .

وقد هيّأ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعْرَف بالمُكْدين، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ فى مطالع كتابه البخلاء، وهو يورد فيه أسماءهم وحِيَلَهم فى اقتناص الدراهم من الناس ويصوّر البيهقى أعمالهم ونوادرهم[1]، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء، وهم يكوّنون فى العصر طبقة كبيرة، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس.

وخير من يصوّر طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العِبَر[2] العباسى الذى عاش فى هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عاماً يَحْيَا حياة جادّة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدّ وعدل إلى الحمق والشهرة به، ويقال إنه لم يكن فى عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخَبْز؛ وفى بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداثَ الهزل، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عُرف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه: أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت؟ وإذا أمسى كيف أصبحت؟ وإذا قال لى: تعال، تأخرت إلى الخلف. ويقال إنه حاول أن يَلْفت المتوكل إليه فقلب زِيَّه إذ جعل فى رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خُفّاً (حِذاء) وجعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل. فلما لمحه المتوكل قال علىّ بهذا المُشْلة ودخل عليه فقال له: أنت شارب إنى أضع الأدهم (القيد) فى رجليك وأنفيك إلى فارس، فقال توًّا: ضَعْ فى رجلى الأشهب وانفنى إلى راجل، فقال المتوكل أترانى فى قتلك مأثوم؟ فقال: بل ماء بصل، فضحك المتوكل. ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أى شاعر بالجِدّ، وقد اتخذه فى مجلسه أضحوكة، فكان يرمى به فى البركة التى وصفها البحترى فى بعض مدائحه، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُصاد، ويخرج وهو يقول:

ويأمُـــر بى ذا الملكْ فيطـــرحنى فى البِرَكْ
ويصطادنى بالشَّبكْ كأنّىَ بعضُ السَّمك

(١) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣

(٢) انظر فى أبى العبر وحياته وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٣٢٣ والأغانى (طبع الساسى) ٢٠/ ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣ والوافى بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١.

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور : الظَّبْيُ معرفة أو نكرة ؟ فأجابه : إن كان مشويًّا على المائدة فمعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له : ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو . وكان يَجْلس الغلمان « الأدباتية » إليه ليسجلوا كلامه ، مما جعله يصنِّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة ، ويُرْوَى أن غلامًا سأله : لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمْأة (ثمرة صحراوية أرضية) فأجابه : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار . وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكْدِين من الأدباتية وغير المكدين ، وسُئل عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أىُّ شىء أصلها ؟ فقال : إننى أبكِّر فأجلس على الجِسْرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعه من كلام الذاهب والجائى والملاحين والمُكارين حتى أملأ القرطاس من الوجهين ، ثم أقطعه عرضًا وألصقه مخالفًا فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحمق منه . وكان ما يزال يُغْرب فى كل ما ينظم من شعر ، ملتزمًا للغة العامَّة وما يشبهها ، ومن قوله فى بعض غزله :

وباضَ الحبُّ فى قلبى فوَاوَيْلى إذا فَرَّخْ

ويستمر فى مثل هذا الهزل ، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله :

أَنا أَنا أَنت أَنا أَيا أَبــو العبرنَّهْ
أَنا الفتى الحمقوقو أَنا أَخــو المجنَّه
أَنا أحــرّر شعرى وقد يجى بَرْدَنَّــهْ

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلا وطلبًا لإضحاك من حوله . وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة ، وقد اتخذه الشعراء « الأدباتية » الذين خلفوه إمامًا لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يَسْلكه فى أشعاره من ألفاظ العامَّة وأساليبهم الركيكة .

ومن شعراء الكُدية الذين ذهبوا مذهب أبى العبر فى التحامق والهزل أبو العجل[١] وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأى حرفة ، لقد درَّتْ عليه خيراً كثيراً وأموالا وبغالا وغلمانًا . يقول :

أيا عاذلى فى الحُمْق دَعْنى من العَذْلِ ... فإنى رَخِىٌّ البالِ من كثرة الشُّغْلِ
ومُرْنى بِما أحببتَ آتِ خلافَه ... فإن جئتَنى بالجِدِّ جئتُك بالهزلِ
وإن قلتَ لى : لِمْ كان ذاك؟ جوابه ... لأنى قد استكثرت من قلَّة العقل
فأصبحتُ فى الحَمْقَى أميرًا مؤمَّرًا ... وما أحدٌ فى الناس يمكنه عَزْلِى
وصيَّر لى حُمْقِى بِغَالاً وغِلْمَةً ... وكنت زمانَ العقل ممتطياً رِجْلى

فلا داعى للعذل واللوم فإن حرفة الكُدْية جعلته سيداً مطاعًا وأثْرته ثَرَاءً واسعًا ، وأصبح الناس لا يضيقون به ، بل يرحِّبون به فى كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون فى بلدان العراق وغير العراق ، جَوَّالين مكثرين من الأسفار فى الاحتيال لجلب الأموال . وفى ذلك يقول أبو العجل لبعض من عذلوه على كُدْيته وحرفته :

أَعَلَى الحماقة لُمْتَنِى ... قد كنت مثلَك أولا
فدخلت مصرَ وأرضها ... والشامَ ثم المَوْصلا
وقُرَى الجزيرة لم أَدَعْ ... فيها لِحَىٌّ منزلا
إلا حَلَلْتُ فِنَـاءَهُ ... بالعقل كى أتمـوَّلا

وممن اتخذ الكُدْية حرفةً فى العصر أبو عبد الله اليعقوبى وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزبانى أشعاراً[٢] تدخل فى الزهد . ونقف قليلا عند جحظة والخبز أرْزى وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

---

(١) انظر فيه وفى أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

جحظة[1]

اسمه أحمد بن جعفر من نَسْل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطُّنْبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبيخ والنجوم ، وله فى الطُّنْبُورِيين كتاب غير كتب أخرى فى عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومنادمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذى لقبه بجحظة لقبه الذى اشتهر به إذ كان فى عينيه نتوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

وارَحْمَتَـــا لمنادميه تحمَّلوا ألَمَ العيون للذَّةِ الآذانِ

وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تُفْتَحْ له بعده ، وفُتحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفى وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْقى على شىء يَصله من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، ولولا صنعته الطنبورية لعاش معدماً . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التعسة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورُون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضًا لما قيل من أنه كان دائمًا وسخ الثياب ، وكان شيعيًّا ، فانصرف عنه كثيرون وأغلقوا أبوابهم فى وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعًا للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور فى بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدَّث هو نفسه ، قال : كنت يومًا عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِى فلم أجده ، فجعلت أقول :

يا قومُ مَنْ لِى بنَعْلى أو فى مصحَّف نَعْلِ

يقصد بنَعْلا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضًا ، وكثير منها يحكى قصة بؤسه من مثل قوله :

---

(١) راجع فى جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

أَنا الذى دينُه إسعافُ سائلهِ والضُّرُّ يعرفه والبؤسُ والعَدمُ
أَنا الذى حُبُّ أَهلِ البيتِ أَفقرَه فالْعَدل مستعْبِرٌ والجَوْرُ مُبْتَسِمُ

وهو يعلِّل لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثرُ جوانبها ضيقٌ وإقلال فى الرزق ، وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يَصْدُرَ عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ الله لم أَقلْ قطُّ. يا بَدْ رُ ويا مُنْصفاً ويا كافورُ
لا ، ولا قلت أَين أَين الشواهِـــينُ ووزَّانُنا وأَين البذور[1]
لا ، ولا قيل : قد أَتاك من الضَّيْ عة بُرٌّ موفَّرٌ وشَعير
أنا خلْوٌ من المماليك والأَمْ لاك جَلْدٌ على البَلا وصَبُور
ليس إلا كُسَيْرةٌ وقُدَيْحٌ وخُلَيْقٌ أَتتْ عليه الدهورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظُّ بهم داره من مثل بَدْر ومُنْصف وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزَّان يزن الحصاد ، لأنه ليس من أصحاب الضياع الذين يَجْنون من ضياعهم البُرَّ والشعير . ليس عنده أملاك ولا مماليك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما يَقُوته من كِسْرة وقدح ماء وثوب خَلَقٍ أكل الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئ حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبْ ولا على باب منزلى حاجبْ
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قِيلَ جحظةٌ راكبْ
ولا قميصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قَميصَ الذاهب
وأجرةُ البيتِ فهْى مُقْرِحةٌ أَجفانَ عينى بالوابل الساكب

(١) الشاهين هنا : عمود الميزان .

إن زارنى صاحبٌ عزمتُ على بَيْعِ كتابٍ لشَبْعةِ الصاحبْ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمّاته كُسِيَ كسوة حسنة ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالى ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سدادها ينغصانه ، بل يُبْكيانه ، حتى لقد تقرّحت أجفانه الكثرة بكائه ، ولا من رحيم يرقّ قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتابًا من كتبه يشترى له به بعض ما يقيم أوَدَه . فيا للبؤس ويا للظلم الصارخ الذى جعل أبناء الشعب يَكْدَحون ويَضْنون والحكام يَجْنُونَ ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يُبْقون لهم منها إلا الذلّ والهوان . وينتابُه مراراً الشك فى حرفته الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبى ضَجِرْتُ من الأَدَبْ ورأيتــه سببَ العَطَبْ
وهجرتُ إعرابَ الكلا مِ وما حفظت من الخُطَبْ
ورهنتُ ديوان النَّقــا ئضِ واسترحتُ من التعب

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفة الأدب التى لم يجن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فمع نفاسته رَهَنه ليَسُدَّ به رَمَقه ، وكأنما أحسّ فيه وفى غيره من كتب الأدب التى صمّم على هجرانها أعباء ثقالا كانت تَبْهظ كتفيه ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبيعيًّا أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية فى عصر المقتدر وأن يصبّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد فى النعيم ، ولا ضَيْرَ من أن يعيش الشعب فى الجحيم ، لذلك كان طبيعيًّا أن يتمنى للوزراء أن تَحيق بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم . ويُرْوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه فى عصر المقتدر ، فقال له : ما تتمنّى ؟ فقال تَوًّا : لم يبق لى مُنًى غير نكبات الوزراء ، فقال له : قد نُكب ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أحسنُ من قهوة معتقة تخالها فى إنائهــا ذهبا

من كفٍّ مَقْدودةٍ منعَّمةٍ تَقْسمُ فينا أَلحاظُها الوَصَبا[1]
نعمةُ قومٍ أَزالها قَدرٌ لم يَحْظَ حُرٌّ فيها بما طلبا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمر نشوة لا تَعْدلها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئًا مما كان فيه من نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلمًا وشرًّا ونُكْراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التى حرمت الأحرار كل برٍّ وكل خير . وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ، وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء فى قالب فكه من مثل قوله فى صديق :

دعانى صديقٌ لى لأَكل القطائفِ فأَمعنتُ فيها آمناً غير خائفِ
فقال وقد أَوجعتُ بالأَكل قلبه رُوَيْدَك مَهْلاً فهْىَ إحدى المتالفِ
فقلت له : ما إن سمعنا بهالكٍ ينادَى عليه : يا قتيلَ القَطَائفِ

وكانت القطائف صادفت منه مسغبة وجوعًا شديداً ، فأكل منها أكل النَّهِم وصديقه ينظر إليه شَزْراً ، فقال له : إنى أخاف عليك التخمة ، بل التلف والهلاك ، فردَّ عليه هذا الرد الظريف . وله فى قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورةَ المائِدَه

وتُرْوَى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على الرغم من قبح وجهه ورثاثة ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجَّاب وغير الحجاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع شعره على ألسنة الصبيان فى الشوارع والأزقة . ومن قوله فى ثقيل :

يا لفظةَ النَّعْىِ بموت الخليلْ يا وَقْفَةَ التَّوْدِيع بين الحُمولْ

---

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب : التعب

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلا أقفرَ من بعد الأَنيسِ الحلولْ
يا نعمةً قد آذنتْ بالرَّحيلْ ونكسةً من بعد بُرْءِ العَلِيل

ويستمر طويلا فى وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التى تجعله تمثالا لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة فى أسوأ صورها ، لكى يَصمه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور فى أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشتى له بعض أشعار فى الخمر كان يغنيها على طُنْبُوره من مثل قوله فى دَيْر أُشْمونى ولهوه فيه :

سَقْياً لأُشمونى ولذَّاتهـا والعيشِ فيما بين جَنَّاتهـا
سَقْياً لأَيامٍ مضتْ لى بها ما بين شَطَّيْها وحاناتها

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلا لقلة أشعاره فيها ، وربما كان الذى أقعده عنها بؤسه الذى كثيراً ما كان يرافقه . وله فى الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فقلتُ لها : بَخِلْتِ علىَّ يَقْظَى فجُـودِى فى المنام لمستهامِ
فقالتْ لى : وصرتَ تنام أيضاً وتطمـع أن أزورك فى المنام

وقد توفى سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصوّر شاعريته الخصبة . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامية ، وهى أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامة فى بغداد .

الخُبْزُ أُرْزِىّ[١]

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَخْبِزُ خُبْزَ الأرْزِ فى دُكَّانه بِمِرْبَد البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفى أثناء عمله كان يُنْشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والشبابُ والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ، ويتعجَّبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع فى الناس لقرب مأخذه وسهولته . وعُنِى بعض معاصريه ممن كانوا ينتابون دُكَّانه بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديوانًا ، وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : « أحد المطبوعين المجوّدين فى البديهة المعروفين بالغزل » . ويقول أيضًا : « أكثر الغناء المحدث فى وقتنا هذا من شعره » . والخبز أرزى بكل ما قدمنا شاعر شعبى بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرفة ، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان فى بلدته والشباب والصَّبْيَة ينشدونه فى كل مكان والمغنون يغنُّون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسنًا لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبى فى اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وَطىَّ أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمِّن كتابه « اليتيمة » لُمَعًا من شعره علقت بحفظه ، وفى الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقى شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإلحاقه باليتيمة من مُلَحه . وبذلك فوَّت على نفسه عملا أدبيًّا ونقديًّا جليلا كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعْرَض كاملة ، حتى يُرَى مدى ما حدث من تطور فى اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء فى جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرَى أيضًا مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

---

(١) انظر فى الخبز أرزى وحياته وأشعاره اليتيمة ٢/ ٢٦٧ ومروج الذهب ٤ / ٢٥٩ وابن خلكان فى نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٧٦ وديوان المعانى ١ / ٢٧٢ ، ٢٩٧ وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن مُلَحه التى رواها له قوله :

خليليَّ هل أبصرتما أو سمعتُما ... بأكرم من مولًى تمشَّى إلى عَبْدِ
أتى زائرًا من غير وَعْدٍ وقال لى ... أصونُك عن تعليق قلبك بالوَعْدِ
فما زال كأْسُ الوصل بينى وبينه ... يدورُ بأفلاك السعادة والسَّعْدِ
فطورًا على تقبيل نَرْجسِ ناظرٍ ... وطورًا على تَعْضيض تفاحة الخَدِّ

وفى كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقَّتَه وأنه يَخْشَى عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان فى التصوير . ومما روى له الثعالبى أيضًا من مُلَحه قوله :

كم أناسٍ وَفَوْا لنا حين غابوا ... وأناسٍ جَفَوْا وهم حُضَّارُ
عرَّضوا ثم أعرضوا واستمالوا ... ثم مالوا وجَاوَرُوا ثم جاروا
لا تَلُمْهم على التجنِّى فلو لم ... يتجنَّوا لم يَحْسن الإعتذارُ

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يَفْقُه صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيهافقها حسنًا . فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حُضَّار» وبين كل كلمتين متعاقبتين فى البيت الثانى جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح فى البيت الأخير . والكلمات عذبة حُلْوة خفيفة . ومن مُلَحه قوله :

رأيت الهلالَ ووجهَ الحبيبِ ... فكانا هلالين عند النَّظَرْ
فلم أدْرِ من حَيْرتى فيهما ... هلالَ الدُّجَى من هلال البشَر
ولولا التورُّد فى الوَجْنَتَيْنِ ... وما راعنى من سواد الشَّعَرْ
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ ... وكنت أظن الحبيبَ القَمَرْ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقا بتلك الحيرة التى انتابته ، فلم يَدْر أين هلال الدُّجَى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورُّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقًا فى حيرته . ومن مُلَحه :

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ فاليوم لو شئتُ تمنطَقْتُ بِهْ
وذُبْتُ حتى صِرْتُ لو زُجَّ بى فى مُقْلة النائم لم ينْتَبِهْ

وهى مبالغة واضحة فيما أصابه من ضَنًى بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه . فحتى المبالغة التى كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدها عنده ، وكأنه توفَّر على الشعر فى عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثَّله بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهًا مما جعله محبوبًا عند أهل البصرة فى حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قولُه فى قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه :

ولعمرى كان الخِوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِـوانِ
وجِفانٍ مثل الجَوابى ولكنْ ليس فيهن ما يُرَى بالعِيانِ[1]
فإذا ما أَدرتُ فيها بَنـانى لم أَجدْ ما أَمسُّه بِبَنانِ
إننى ما ضغْتُ على غَيْر شىءٍ غير صَكِّ الأَسنان بالأَسنانِ
ترجع الكفّ وهْى أَفرغ منها عند مَدِّى لها فَدأْبى وشانى

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصرى خاصة مما جعلهم يتعلقون به تعلقًا شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التى كان ينشدها فى خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلَّها بقوله :

بات الحبيبُ منـادمى والسُّكْرُ يَصْبِغُ وَجْنَتيهِ

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبى بالمعنى الدقيق ، فقد نظمه صانع من صناع الشعب ، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

(١) الجوابى : أحواض الماء

به وعَرْضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدِّم أشعاره للجمهور، متبغيًا إرضاءه بتصويره لأحاسيسه فى الغزل، وباتخاذه لُغَتَه السهلة التى لا تجد فى فهمها أى عسر أو مشقة . وقد لبَّى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول المسعودى أُشيع أن الوزير البريدى غَرَّقه لأنه كان هجاه ، وقيل : بل فَرَّ من البصرة إلى هجر والبحرين وتوفى هناك ، ومهما يكن فقد حزنت البصرة وشبابها لوفاته ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلا .

obeikandl.com